زبد خلاصة التصوف

وهو المسمى

حل رموز ومفاتيح الكنوز

تأليف

سلطان العلماء

الإمام العز بن عبد السلام

المتوفى سنة ٦٦٠هـ

رضى الله عنه

تحقيق

محمد عبد الرحمن الشاغول

مكتب الروضة الشريفة للبحث العلمى



زبد خلاصة التصوف

وهو المسمى

«حل الرموز ومفاتيح الكنوز»

تأليف

سلطان العلماء

الإمام العز بن عبد السلام

المتوفى سنة ٦٦٠ هـ

رضى الله عنه

تحقيق

محمد عبد الرحمن الشاغول

مكتب الروضة الشريفة للبحث العلمي



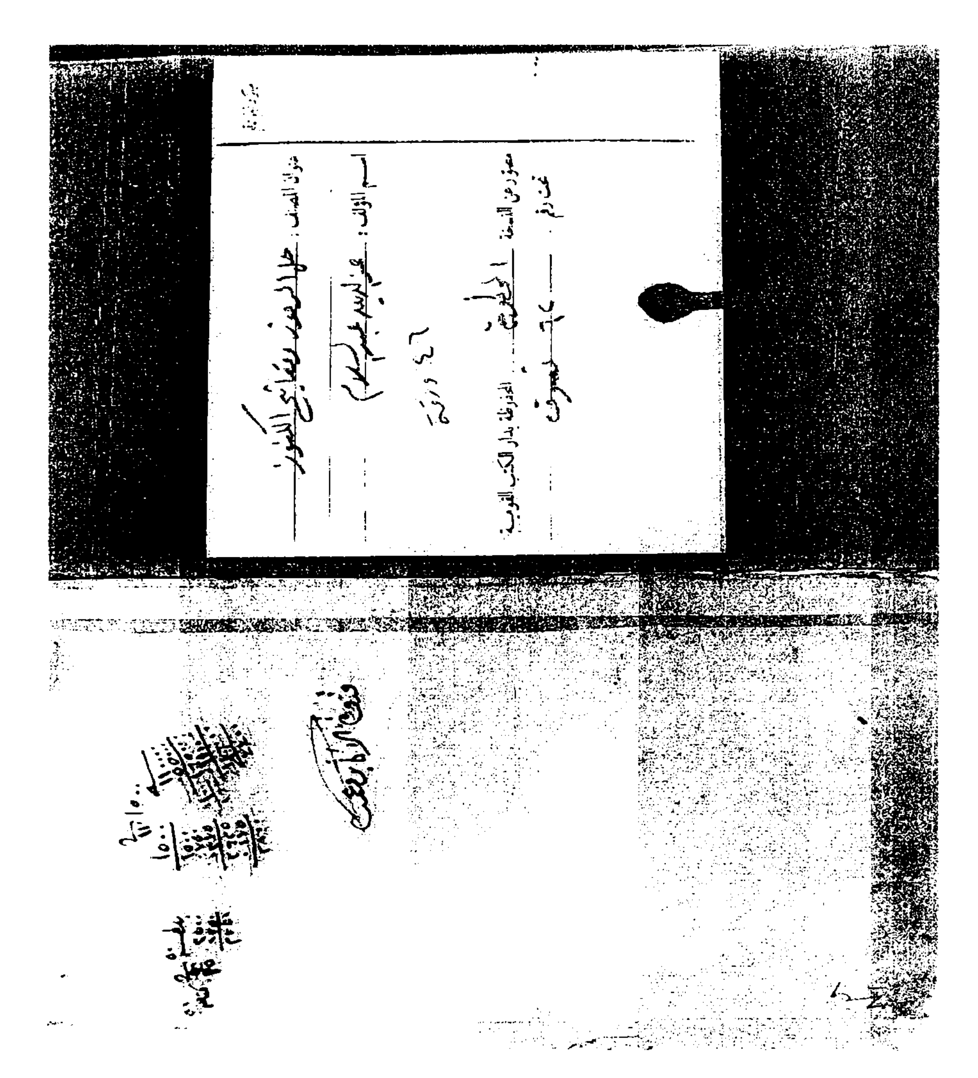
وصف المخطوط

أما عن وصف مخطوط هذا الكتاب الجليل المقدار العميم النفع؛ فإنه يقـــع بدار الكتب المصرية تحت عنوان «**حل الرموز ومفاتيح الكنوز**»، وذلك برقم (٦٢) تصوف، وعدد أوراقه (٤٦) ورقة، ومسطرته من خمسة عشر سطراً إلى سبعة عشر سطراً.

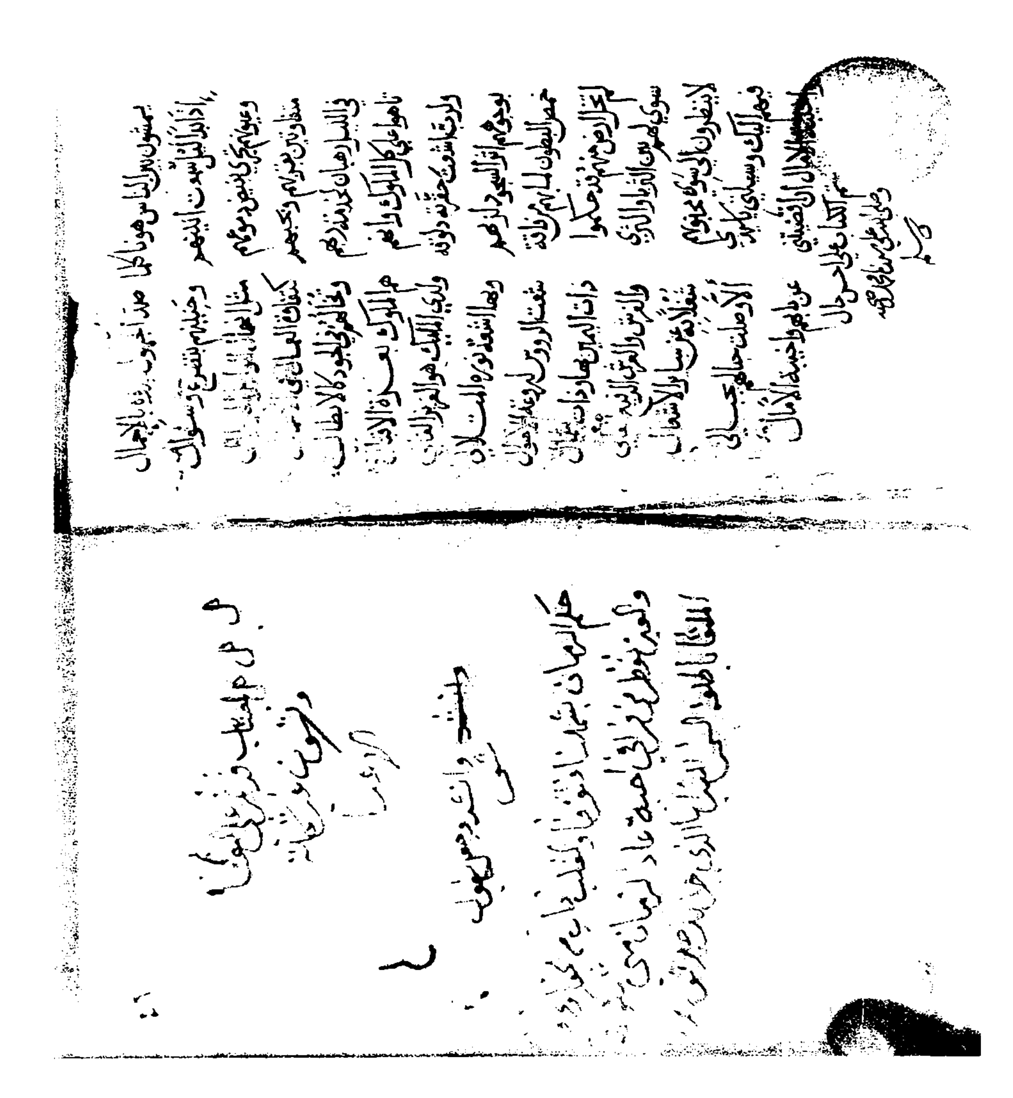
هذا ويقع أيضاً تحت هذا العنوان مؤلف آخر ينسب للشيخ العلامة عـــلاء الدين بن محمد بن مسعود العمري البكري المعروف بـــ«مصنفك»؛ وهو شرح على مختصر الشيخ أبي حفص عمر بن محمد السهروردي؛ فهو مصنف آخر غير مؤلَّف العلامة الإمام ابن عبد السلام.

المحقق/

محمد عبد الرحمن الشاغول.



صورة الصفحة الأولى من المخطوط



صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

ترجمة المؤلف

نسبه:

هو الإمام عبد العزيز بن عبد السلام العلامة ذو الفنون، وحيد عصره عز الدين السلمى الدمشقى ثم المصرى، شيخ الشافعية، وقدوة الصوفية، إمامٌ عزّه دائم، وطائرٌ فضله حائم، وبحر كمال موجه زاخر، وجوهر علومه فاخر.

بعض شيوخه فى العلم:

أخذ الفقه عن ابن عساكر، والأصول عن الآمدى، ورحل إلى بغداد، وسمع الحديث من ابن طبر زد وغيره.

بعض تلاميذه:

أخذ عنه ابن دقيق العيد، وهو الذى لقبه سلطان العلماء، وعنه أخذ الدمياطى، والتاج الفِرْكاح، والباجى، وخلقٌ.

نبذه عن حياته العلمية:

ولى خطابة دمشق، فلم يلبس السواد، ولا سجَّع خطبةً، وترك الثناء على الملوك، وأبطل صلاة الرغائب، ونصف شعبان، فكان بينه وبين ابن الصلاح بسبب ذلك ما كان. وكان السلطان الأشرف موسى قد كتب جواباً عن كتاب كتبه العزّ إليه يطلب منه عقد مجلس بسبب العقائد -وكان الأشرف متحاملاً عليه مع خصومه الحنابلة- فكتب إليه العزّ كتاباً فى آخره: وبعد؛ فإنا

نزعم أننا من جملة حزب الله وجنده، وكل جندىٌّ لا يخاطر بنفسه فليس بجنديٍّ؛ وافتتحه بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٩٢].

ولما سلَّم الملك الصالح إسماعيل قلعة صَفَد للفرنج نال منه على المنبر، ولم يَدْعُ له، فغضب السلطان، وعزله، وسجنه، ثم أطلقه، فترح إلى مصر، هو وابن الحاجب، فولاه السلطان قضاء مصر، فتمكن من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أكثر، فشقّ ذلك على حاشية الملك، فعزله، وقد رقا بمصر عند سكنه بها إلى أسمى المراتب، وولى الحكم بالديار المصرية، وحاز قصب السبق فى ميدان طائفته العصرية، وكان أولاً ينكر على الصوفية، ويقول: هل لنا طريق غير الكتاب والسنة؟! فلما اجتمع بالإمام أبى الحسن الشاذلى، وذاق مذاهبهم، وقطع السلسلة الحديد بالكراسة الورق، صار يمدحهم، بل دخل فى عدادهم.

مصنفاته:

لقد ترك لنا التصانيف المفيدة، فترك تفسيراً مختصراً فى مجلد، وكتاب «القواعد الكبرى»، وكتاب «القواعد الصغرى»، وكتاب «مجاز القرآن»، وكتاب «شجرة المعارف»، وكتاب «شرح الأسماء الحسنى»، وكتاب «مختصر النهاية»، و«الفتاوى الموصلية»، وكتاب «**حل الرموز ومفاتيح الكنوز**»، وهو هذا الكتاب الذى تتقدمه هذه الترجمة لمؤلفه.

ومن كلامه:

الشريعة كلها مصالح، إما بدرء مفاسد، أو بجلب مصالح؛ فإذا سمعت الله يقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾** [البقرة: ١٥٣]، فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيراً يحثك عليه، أو شراً يزجرك عنه، أو جمعاً بينهما.

وقال: من أول دليلٍ على أن القوم قعدوا على أساس الشريعة، وقعد غيرهم على الرسوم، ما يقع على أيديهم من الخوارق، ولا يقع شئ منها من فقيهٍ إلا من سلك طريقهم، وقال: كلام العارف ينبع من قعر قليب قلبه تسوقه جداول أفكاره إلى مصب لسانه، فيقع على مزارع المسامع، فإذا صادف أرضاً طيبة أنبتت شجرة طيبة تطلع أزهار الحكم وثمار العبر، وقال: لا تصحب إلا من تجد من أنفاسه عطريّة نفحات المعرفة، وثمرات المحبة؛ فإنه من الأنفاس ما يكون نسيماً مورقاً، ومنها ما يكون سموماً محرقاً.

ومن كراماته:

أنه لما ورد الخبر بوصول التتار، رسم السلطان المظفَّر قُطُز بالخروج بعد العيد، فطلع عليه، وقال: ما تأخرك؟ قال: حتى نهيئ أسيافاً، قال: لا، قم، قال: فتضمن لى على الله النصر؟ قال: نعم. فكان ما قال.

ومنها: أنه لما وصل الفرنج إلى المنصورة لقتال المسلمين فى مراكب عديدةٍ، والريح أسرعت قلوعها، واستظهر العدو، وضعفت قلوب المسلمين، وكان الشيخ معهم، فأشار بيده إلى الريح، وقال: يا ريح خذيهم، قالها عدة مرات، فعادت الفرنج، وكسرت مراكبهم، وكان الفتح.

ومنها : أن السلطان كلمه مرةً بغلظة، فغضب، وحمل حوائجه على حمارةٍ، وأركب زوجته، ومشى خلف أهله خارجاً من القاهرة، فلحقه غالب المسلمين رجالاً ونساءًا وصبياناً، فبلغ السلطان الخبر، فقيل له: متى راح ذهب ملكك؛ فلحقه، وترضّاه حتى عاد.

وكان مع شدته، فيه حسن محاضرةٍ بالنوادر والأشعار، وكان يحضر السماع، ويرقص، ويتواجد.

ولما مرض قال له السلطان: من فى أولادك يصلح لوظائفك؟

قال: ليس فيهم من يصلح لشئٍ منها.

وأفتى مرةً بشئٍ، ثم ظهر له أنه خطأ، فنادى فى مصر والقاهرة: من أفتى له فلان بكذا، فلا يعمل به، فإنه خطأ.

وكان مع فقره كثير الصدقة، حتى إذا لم يكن معه شئ أعطى قبّعه.

واحتلم فى ليلةٍ شديدة البرد، فجاء إلى جامدٍ فكسره، واغتسل، فكادت روحه تزهق، ثم احتلم، ففعل مثل ذلك، فأغمى عليه، وكاد يهلك، فسمع قائلاً يقول: لأعوِّضنّك بها عزّ الدنيا والآخرة.

وفاته رضى الله عنه:

توفى بمصر سنة ستين وستمائةٍ، ودفن بالقرافة الكبرى فى آخرها. (١)

---

(١) الترجمة من كتاب «الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية» مع اختصارٍ وتقديمٍ وتأخيرٍ (ج١ من ص١١٠ : ص١١٥) ط المكتبة الأزهرية للتراث.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى فتح بمفاتيح الغيوب أقفال القلوب. ورفع حجب السرائر. وجلا أبصار البصائر فظهر ما كان محجوب. وجلا عرائس الوجود فى مرآة الشهود [1]. فمن فهم المقصود بلغ المطلوب. وفق من شاء من عباده فجاهد فى الله حق جهاده بما سبق له فى المكتوب. ثم هداه بعد ما بين له هداه. ثم رقاه بعد ما نقاه من العيوب. ثم والاه بعد ما تولاه ثم أولاه نعماً لا يحصرها حسوب. ثم شغله بالمُنْعِم عن النعم ثم أقامه على قدم الخدمة في الخَدَم ثم خلع عليه خلعة من خلع القدم. والواهب الكريم لا يسترد الموهوب[2] . فأول قدم رفعه من دار ملكه ووضعه في دار ملكوته ثم أشرفه على عَرَصات[3] جبروته فاختطفه هنالك خطفات هيبته. فهو مختطف مجذوب. ثم أعرته يد اللطائف الربانية عن الكثائف الجثمانية فهو هنالك منتهب مسلوب. فلما أخذه من نفسه وسلبه عن حسه وانتهبه من بين أبناء جنسه. رفعه إليه ثم رده عليه وقربه لديه فهو حينئذ مراد ومخطوب. فلما اصطفاه لقربته واجتباه وأخلاه لحضرته. لم يك غير محب

(١) الشهود: هو رؤية الحق بالحق، فيشهده الله تعالى نفسه فيما أبدع وصنع فيكون حاله كمن قال:

وفى كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحد

(٢) يقولون: إن الكريم إذا وهب ما سلب.

(٣) يقال: عَرْصة وعَرَصات مثل سَجْدة وسَجَدات – «المصباح المنير».

ومحبوب. ثم روق له من كرم كرمه شراباً مستخرجاً من راووق[1] ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] فسكر قبل أن يتناول المشروب ثم تجلى له في ساعة سعوده. فغلب بشهوده عن وجوده. فما أفاق إلا بمذكّر ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فلما صح بذكره صحا من سكره صاح لسان عشقة المطروب؛ وقلت في ذلك:

أنا في المحبة مخطوب	وهو المحب إياي والمحبوب
لولا قديم الحب[2] ما أخلصت في	حبي فكنت الطالب المطلوب
أبدا يصافيني الهوى فكأنما	أنا في الحقيقة صاحب مصحوب

أحمده حمد من إليه يؤوب وعن ذنبه يتوب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أدخرها لتفريج الكروب. في يوم لا شروق لشمسه ولا غروب، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اختاره من بين الأنام خير محبوب وجعل حبه على خليقته مفترضاً غير مندوب. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة إلى يوم وعده غير مكذوب.

---

(١) يقال: راق الماء إذا صفا، والراووق: اسم آلة – «المصباح المنير».

(٢) أي: لولا ما سبق له في قديم علم الله أنه يكون محبوباً.

وبعد:

فإنه لما كانت المعاني جواهر. والألفاظ أصدافها[1]، والحِكَم معادن القلوب أهدافها؛ وجب على من فتحت اليقظة عين بصيرته وجلت الموعظة مرآة سريرته أن يتبع من أجل الكلام معانيه، ومن الحكم ما يبلغ به أمانيه ولا يقنع من المعدن بدون كنزه. ولا من اللفظ إلا بفهم رمزه، وإني رأيت كثيراً من الألفاظ قد ارتبك في أغماضها[2] كثير من أهل الاعتراض فمنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أى أحسن جوامعه، ومنهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وقد عجز كثير عن حلها لعز محلها، فمنها ما جاء في الآيات والأخبار المشهورة ومنها ما جاء في الآثار المأثورة فمثال ما جاء في صريح الخبر الصحيح. كقوله سبحانه وتعالى: «**ما وسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن**[3]»، ومنها «**لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا**

---

(١) يقال: «الألفاظ قوالب المعانى»؛ فهى التى تحتوى على ما اشتمل عليه اللفظ من معنىً فيوضع فى هذا القالب ليدل على المراد منه.

(٢) أى: ما خفى من معانيها، من قولهم: غمض الحق غموضاً.

(٣) الحديث مشهور عند السادة الصوفية وقد ألف الإمام عبد الكريم الكيلاني كتاباً سماه «لوامع البرق الموهن في معنى ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المُؤمِن»، على ثمانية أبواب انظر «كشف الظنون».

أحببته كنت له **سمعاً وبصراً**[1] » وفي حديث: «**وفؤاداً**». وفي حديث: «**ولساناً ويدا فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش**[2] ». ومنها في الحديث: «**أنا جليس من ذكرني**[3] »، وفي الحديث: «**من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشى أتيته هرولة**[4] »، ومنها ما جاء بلفظ العندية: «**تجدني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي**[5] ». وبلفظ المعية: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد: ٤]، وبلفظ الاتحاد كقوله لعبده في القيامة: «**يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، واستطعمتك فلم تطعمني**[6] » الحديث، ومن ذلك ما أخبر به الرسول عليه السلام عن نفسه: «**إني لست كأحدكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني**».

وأما ما جاء في الأثر إما فتحا وإما شطحا كقول القائل: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا»، وكقول الآخر: «أنا الله»، وكقول الآخر: «ما في الجبة إلا الله»، وكقول الآخر: «سبحاني»، وكقول الآخر: «ما أعظم شأني». فهذا كله وما

---

(١) أصل الحديث رواه البخارى فى «صحيحه».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ورد فى «صحيح مسلم» بلفظ «وأنا معه حين يذكرنى».

(٤) رواه البخارى.

(٥) يروى عن عبد الله ابن شوذب يقول قال داود النبي عليه السلام: أي ربي أين ألقاك؟ قال: تلقاني عند المنكسرة قلوبهم».

(٦) رواه الإمام مسلم فى «صحيحه».

شاكله وماثله القول فيه واحد لأنها وإن اختلفت ثمارها وتنوعت أزهارها لكنها تسقى بماء واحد تشير إلى محو الاثنين وثبوت الواحد، فقوم تلقوه بالتسليم وقابلوه بالقلب السليم وحملوا ذلك على معنى قوله عليه السلام: «**إن من العلم كهيئة المخزون لا يعلمه إلا أهل العلم بالله، فإذا تكلموا به أنكره أهل الغرة بالله**»، وقد بلغني عن قضيب البان[1] بالموصل، وكان عظيم الشأن، وكان قد برز للناس بالوله والاختلال وترك الصلاة لا يأوي إلا إلى المزابل ولا يتوقى النجاسة والناس متحيرون في حاله مختلفون في أمره، فقوم يقولون: زنديق، وقوم يقولون: صديق، فبينما يوم من الأيام قاضي المدينة ماراً إذ رآه على مزبلة وقد بال على ساقيه، فقال القاضي في نفسه: تباً لمن جعلك صديقاً وما أنت إلا زنديق فما استتم الخاطر حتى قال قضيب البان: يا قاضي قد أحطت بجميع علم الله؟ قال له: لا والله، قال: فأنا من ذلك العلم الذي لا تعلمه، وما عليك إن كنت صديقاً أو زنديقاً.

فلما رأيت هذه الأقوال الصادرة عن أهل الأحوال وقد أشكل على الأفهام تعليلها، وعزب عن الأوهام تأويلها أحببت أن أشرح منها ما انشرح له صدري وسنح به فكري وبلغ إليه قدري، وذكرت فيه من العبارة ما ليس فيه استعارة وقدمت ذكر هذه الأحاديث وما معها من الألفاظ المأثورة عن الرجال،

(١) قضيب البان: وليّ من الأولياء كان أعطاه الله خاصية أن يتمثل بأكثر من صورة في آن واحد في أماكن متفرقة بما هو معروف بعالم المثال وهو عالم أكثر كثافة من عالم الروح وأقل من عالم الجسد.

وجعلتها أساً للكلام[1] وبينةً لثبوت الأحكام لتكون منوالاً أنسج عليها ما كان حالا لا مُحَالاً، وسميتها: «**حل الرموز ومفاتيح الكنوز**».

وإنما سميتها بهذه التسمية لأنها تشير إلى المقام الأشرف المعروف منه: «**كنت كنــزاً لا أعرف**»[2] ثم قدمت لحل هذه الأشكال مقدمة يزول بها الإشكال إذ النتائج لا تظهر إلا بالمقدمات، والنهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات، فمن صديق في بدايته أطلعه الله على حقائق نهايته. كما أن من بني أساساً ثبت عليه بالكتاب والسنة والقياس. قال الله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ**﴾ [التوبة: ١٠٩].

وأقول، وبالله التوفيق:

اعلم أن العلم مقدمة نتيجتها العمل، والعمل مقدمة نتيجتها الحال[3] فالعلم والعمل كسبي والحال وهبي، قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت: ٦٩] فالمجاهدات بالعلم والعمل، والهداية مواهب الله تعالى في الأحوال، وهذا معنى قوله عليه السلام: «**من عمل بما يعلم ورَّثه الله علم ما لا يعلم**»، فالذي أورثه الله لعبده لم يكن من سببه بل بفضل الله وبرحمته،

---

(١) الأسّ: هو الأصل.

(٢) الحديث مشهور عند سادتنا الصوفية – رضي الله عنهم – وقد ألف فيه الشيخ بالي خليفة كتاباً أسماه «شرح حديث كنت كنــزاً مخفياً». انظر «كشف الظنون».

(٣) الحال: هو ما يرد على القلب أو يحلّ به من كرب أو حزنٍ أو قبضٍ أو بسطٍ أو خوفٍ أو انشراح...

وبذلك منَّ الله على نبيه عليه السلام فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ثم اعلم أن من مراتب السلوك إلى منازل الملوك ثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام أول مراتب الدين لعامة المؤمنين. ثم الإيمان أول مدارج القلب لخاصة المؤمنين. ثم الإحسان أول معارج الروح لخاصة المقربين.

وقد فسر ذلك رسول الله ﷺ في الحديث المشهور وهو ما رواه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: «**بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً، قال له: صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، قال: صدقت، فأخبرني عن الإحسان، قال أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**[1]» الحديث ثم بين في آخر الحديث، قال: يا عمر أتدري من السائل؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذلك جبريل أتاكم يعلمكم معالم دينكم**».

(١) أصل الحديث أخرجه البخاري في «كتاب الإيمان» باب «سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان».

. فأول ما يفتح من الكنوز ما في هذا الحديث من السر المرموز والمعنى الملغوز وهو أن جبريل هو الفاتح لهذا الباب، والسائل عن هذه الأسباب، والمتأدب بهذه الآداب ففي ذلة سؤاله إجلال لعزة رسول الله ﷺ إذ هو بين يديه كالمتعلم بعد ما كان معلماً، ولا عجب إذ أتاه جبريل يتأدب بآدابه ويقف وقوف السائل على بابه، وكيف لا يكون وقد خلفه عند سدرة المنتهى، وانتهى إلى حضرة ليس لها منتهى، وجلس حيث لا أين على بساط قاب قوسين، وتعلم من معلم **﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾** [النجم: ١٠] ثم انصرف من مكتب «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»، فتلقاه سائق الروح قائماً على باب «**لو تقدمت قدر أنملة لاحترقت**[1]»، فناداه بذلة السؤال: يا محمد كنت أظن أني عرفت الله قبلك وأني أقاس في الرتبة مثلك، وقد عرفت قدرك عند ربي من قدري وإلى الله عذري، فأنت في الحقيقة متقدم وها أنا بين يديك متعلم، وأخبرني ما الإسلام؟ أخبرني؟ ما الإيمان أخبرني؟ ما الإحسان؟ فجبريل في الحقيقة عرِّيف هذه الأمة في مكتب التعليم من نبي الرحمة.

(١) أخرجه السيوطي في «الجامع الصغير» عن الطبراني، والنسائي بلفظ «هل ترى ربك؟» قال: إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور لو رأيت أدناها لاحترقت.

فصل

وقد لمع من هذه النكتة لمعة باهية وأنا أدلك ما هى:

اعلم أنه لما أدخل الله عباده مكتب التعليم فتقدم آدم من زمنٍ تقادم وطالع لوح الوجود فقرأ وعلم آدم الأسماء كلها، وطالع محمد ﷺ لوح الشهود، فقيل له يا محمد مالك ولأسماء الخلائق وأنت صفوة الخالق ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ [العلق: ١] فلما كتب وأدب وهذب قيل: يا محمد قد تعرفت إلينا بالأسماء والصفات فتعرف إلينا بالذات ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ**﴾ [العلق: ٣]، فلما غاب عن الاسم وجد المسمى، ولما أعرض عن الفعل قرأ الحرف المعمى، فلما عرفه الله تعالى بحقه رفعه على خلقه ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فجاءهم بمثال ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ**﴾ [آل عمران: ١٩] فقال أطفال التعليم بلسان الاستسلام يامحمد ما الإسلام؟ ما الإيمان؟ ما الإحسان؟

فبين رسول الله ﷺ في هذا الحديث أن أدب السلوك في خدم الملوك ثلاثة فالإسلام قيام البدن بوظائف الأحكام، والإيمان قيام القلب بوظائف الاستسلام والإحسان قيام الروح بمشاهدة الملك العلام ألا تراه يقول: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**»، فتكون قائماً بوظائف العبودية مع شهودك إياه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك فتكون قائماً بوظائف العبودية مع شهوده إياك، فأنت في الأول مراد، وفي الثاني مريد لأنه حين أرادك أشهدك إياه وحين أردته كانت الإرادة

منك له فلذلك حجبك، فلو كانت الإرادة منه لك لما حجبك، فإنه لا توصل إليه إلا به.

قال داود عليه السلام: يارب أين أطلبك؟ قال يا داود أنت من أول قدم فارقتني، قال: يارب وكيف؟ قال: لأنك جعلت الطلب منك إلى ولو جعلته منى إليك لوجدتنى.

قال أبو زيد: همت في بدايتي في ثلاثة أشياء: كنت أظن أنى أحببته وطلبته وذكرته فلما كشف لى رأيت ذكره لى سابق ذكرى له وطلبه لي سابق طلبي له وحبه لي سابق حبي له، فالكل به وبفضله.

ثم في الحديث معنى خفى يظهر لمن قلبه ذكيّ في قوله: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، فقوله: «**فإن لم تكن**» هذا كلام تام وشرطه تام ثم قوله: «**تراه**» جزاء هذا الشرط، فمعناه إن لم تكن أنت في البين ولا بقى لك أثر في العين فإنك تراه.

واعلم أن هذه المراتب لا تصل إلى واحدة منها حتى تحكم ما قبلها، ولكل واحدة منها طريق معلوم وسلوك مقسوم، وأصل ذلك كله وملاكه التوبة لأن التوبة تجب ما قبلها، كما أن الإسلام يجب ما قبله.

وصحة التوبة مبنية على ثلاثة شروط: الأول: الندم على ما فات من المخالفات، الثانى: القيام في الحال على أحسن الحالات، الثالث: العزم على أن لا يعود إلى قبيح العادات فإن أخل بشيء من هذه الثلاث فهو تائب نكاث.

وأما قوله عليه السلام: «**الندم التوبة**[1]» فهو إنما نصَّ معظم أركان التوبة، لأن الندم وحده كاف في التوبة، كما قال في الحج: «**الحج عرفة**[2]»، فما أراد به أنه لا ركن في الحج إلا عرفة، وإنما ذكر معظم أركان الحج وهو الوقوف بعرفة، ولا شك أن الندم معظم أركان التوبة لأن الندم أمر متعلق بالقلب والجوارح فإذا ندم القلب رجع عن المعاصي فرجعت برجوعه الجوارح، وهو معنى قوله عليه السلام: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد ألا وهي القلب**[3]».

ثم اعلم أن التوبة على ثلاثة أقسام: أولها التوبة، وآخرها الأوبة، وأوسطها الإنابة، فمن تاب خوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب رجاء مثوبة فهو صاحب إنابة، ومن تاب حفظاً وقياماً بالعبودية لا رغبة في الثواب ولا رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة، فالتوبة صفة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [النور: ٣١].

وفي هذه الآية إشارة خاصة وبشارة عامة؛ أما البشارة فهو علم العصاة والطائعين والموافقين والمخالفين بلفظ الإيمان، وسماهم مؤمنين لئلا تتمزق قلوبهم من خوف القطيعة، وأما الإشارة الخاصة ففيها أمر بالتوبة فأمرهم مع طاعتهم بالتوبة لئلا يعجبوا بطاعتهم ويصير عجبهم حجبهم فأمرهم بالتوبة فتساوى في

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» كتاب «مسند المكثرين من الصحابة» باب «مسند عبد الله بن مسعود».

(٢) رواه الترمذي في سننه كتاب «الحج عن رسول الله» باب «ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج».

(٣) أصل الحديث أخرجه البخاري في كتاب «الإيمان» باب «فضل من استبرأ لدينه».

ذلك الطائع والعاصي، ولذلك قال ﷺ: «**توبوا فإني أتـوب إلى الله في اليـوم والليلة مائة مرة**[1]»، وأما الإنابة فهي صفة الأولياء، قال الله تعالى: ﴿**وَجَـاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ**﴾ [ق: ٣٣]، وأما الأوبة فصفة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعـالى: ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص: ٤٤].

ثم اعلم أن توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من غفلة القلوب، وتوبة خواص الخواص من كل شيء سوى المحبوب، فشتان بين التائب من الـزلات وبين التائب من الغفلات، وبين تائب من رؤية الحسنات، وهذا معنى قـولهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

لأن من عبد الله استحقاقاً لربوبيته وقياساً بعبوديته لا رغبـة في جنتـه ولا خوفاً من ناره، فعنده رؤية الثواب وملاحظة العقاب نقص؛ لأنه خاف ما سوى الله وترجى غير مولاه، وإنما خوفه هيبة له ورجاؤه ثقة بـه، وقـد جـاء فى الإسرائيليات أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود إن أحب أحبائى إلى من عبدنى لغير نوال بل ليعطى الربوبية حقها، ومن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار، يا داود وإنما خلقت النار سياطاً لأسوء عبادي أسوقهم إلى خدمتي وخلقت الجنة لمتوسلي عبادي أوصلهم إلى جواري وقربي. يا دادود لو لم أخلق جنة ولا ناراً لم أكن أهلاً أطاع وأعبد محبة لى؟!

---

(١) رواه ابن ماجه بلفظ «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»، وله ألفاظ أخرى في السنن.

وقد قال عليه السلام: «**لا يكون أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل أو كالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل**».

ويظهر من هذا المعنى سر قوله عليه السلام: «**نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه**»، فهذا في لفظه إشكال، وتفسير ذلك وتحقيقه أنه أثنى عليه بقوله: «**نعم العبد**»، فلو كان عصى ما استحق المدح، وقد علق وجود المعصية على وجود الخوف، وقد ثبت أنه ما عصى فعلمنا أنه ما خاف، فتركه للمعصية لم يكن خوفاً من عقوبته بل رعاية لمحبته.

ووجه آخر في تفسيره وهو أن الهاء في يعصه ضمير عائد على صهيب فمعناه لو لم يخف الله لم يعص نفسه.

واعلم أن السالك إذا صدق في توبته لزمته المجاهدة واستعمال جوارحه فى الطاعات.

فإذا داوم العبد المجاهدة أثمرت له حركات ظاهرة وبركات باطنة فإن حركات الظاهر توجب بركات الباطن؛ لأن الله سبحانه جعل بين الأجساد والأرواح رابطة ربانية وعلاقة روحانية؛ فلكل منهما ارتباط بصاحبه وتعلق به يتأثر بتأثر صاحبه.

فإذا عملت الجوارح بالطاعة أثر ذلك على قلبه فيخشع قلبه وتصفو روحه وتزكو نفسه، وإذا أخلص القلب بالطاعة أثر ذلك على جوارحه فاستعملها فى طاعته. ألا تراه عليه السلام يقول لذلك الرجل الذي رآه يعبث في صلاته: «**لو**

خشع قلب هذا لخشعت جوارحه[1]»، وقال «**من أخلص لله أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**».

فلزوم المجاهدة يوصل إلى حضرة المشاهدة ألا تراه سبحانه وتعالى يقول لنبيه وحبيبه: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩].

فإذا كان مقصود الوجود[2] لا يصل إلى المقام المحمود إلا بالركوع والسجود فكيف يطمع بالوصول من ليس له محصول. قال أبو عثمان المغربى رحمة الله عليه: كل من ظن أنه يفتح عليه بشيءٍ من هذه الطريقة أو يكشف له عن شئ منها بغير لزوم المجاهدة فهو فى غرورٍ وغلط.

قال أبو يزيد البسطامى رحمة الله عليه: مكثت اثنتي عشرة سنة حداد نفسي وخمس سنين كنت أجلى مرآة نفسى وسنة أنظر فيما بينهم، فإذا في وسطى زنار فعملت في قطعه خمس سنين انظر كيف أقطعه فقطعته فكشف لى فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات.

ومعنى هذا الكلام والله أعلم: أنه عمل في مجاهدة نفسه وإزالة أزغالها وما حشيت به من العجب والكبر والحرص والحقد والحسد وما شابه ذلك مما هو من مألوفات النفس.

---

(١) رواه البيهقي في «السنن» من قول سعيد بن المسيب.

(٢) يعنى بمقصود الوجود النبى صلى الله عليه وسلم لأن الله خلقه ليحيى به قلوب الخلق ويخرجهم من الظلمات إلى النور ومن النار إلى الجنة ومن الشرك إلى التوحيد.

فعمل في إزالة ذلك بأن أدخل نفسه إلى كير[1] التخويف ثم طرقها بمطارق الأمر والنهي حتى أجهده ذلك وظن أنها قد نظفت.

ثم نظر في مرآة إخلاص قلبه فإذا بقايا من الشرك الخفي وهو الرياء والنظر إلى الأعمال، وملاحظة الثواب والعقاب، والتشوق إلى المقامات والكرامات والمواهب وهذا شرك في الإخلاص عند أهل الاختصاص، وهو الزنار الذي أشار إليه فعمل في قطعه يعنى قطع نفسه وفطمها عن العلائق والعوائق[2] والإعراض عن الخلائق حتى أمات من نفسه ما كان حياً، وأحيا من قلبه ما كان ميتاً حتى ثبت قدمه فى شهود القدم وأنزل ما سواه مترلة العدم.

فعند ذلك كبر على الخلق وانصرف إلى الحق.

ومعنى قوله: «كبرت على الخلق أربع تكبيرات»؛ لأن الميت يكبر عليه أربعاً لأن حجاب الخلق عن الحق أربع: النفس والهوى والشيطان والدنيا فأمات نفسه وهواه ورفض شيطانه ودنياه؛ فلذلك كبر على كل واحدة ممن فنى عنه تكبيرة لأنه الأكبر وما سواه أذل وأصغر.

---

(١) الكير: زقّ الحداد الذى ينفخ به.

(٢) العوائق والعلائق: هى ما يعوقه من أمر الدنيا والنفس والهوى والشيطان عن الله، والعلائق ما تعلق به من ذلك ومثله.

فصل

ثم اعلم أنك لا تصل إلى منازل القربات حتى تقطع ست عقبات.

العقبة الأولى: فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية.

العقبة الثانية: فطم النفس عن المألوفات العادية.

العقبة الثالثة: فطم القلب عن الرهونات البشرية.

العقبة الرابعة: فطم السر عن الكدورات الطبيعية.

العقبة الخامسة: فطم الروح عن التجارات الحسية.

العقبة السادسة: فطم العقل عن الخيالات الوهمية.

فتشرف من العقبة الأولى على ينابيع الحكم القلبية.

وتطلع من العقبة الثانية على أسرار العلوم اللدنية.

ويلمع في العقبة الرابعة أنوار أعلام المنازلات القربية.

ويطلع لك في العقبة الخامسة أقمار المشاهدات الحبية.

وتهبط من العقبة السادسة على رياض الحضرة القدسية.

فهنالك تغيب بما تشاهد من اللطائف الأنسية عن الكثائف الحسية.

فإذا أرادك لخصوصية الاسطفائية سقاك بكأس محبته شربة تزداد بذلك ظمأ وبالذوق شوقاً، وبالقرب طلباً، وبالسكون قلقاً، وفي ذلك قيل شعر:

يزيـد ظمـاه كلمـا ازداد شـربه — من المحب فأعجب منه ظمآن بالشـرب

وأعجـب مـن ذا قربـه لحبيبـه — ويزداد بالقرب اشـتياقاً إلى القـرب

فلا الشرب يروى لا ولا القرب يشتفى — به القلب بل يزداد كرباً على كـرب

وليس شـفاء القلـب إلا فنـاؤه — بأحبابه فاسـلك بـه سـنة الحـب

فإذا تمكن منك السكر أدهشك، فإذا أدهشك حيرك، فأنت ههنا مريد فإذا أدام لك تحيرك أخذك منك وسلبك عنك فتبقى ثَمَّ مسلوباً مجذوباً فأنت حينئذ مراد إذ أنت معه بلا أنت وعنده بلا أين مشاهده بلا كيف.

فإذا فنيت ذاتك وذهبت صفاتك قام بصفاته عن صفاتك، وببقائه عن فنائك وخلع عليك خلعة فبى يسمع وبى يبصر فيكون هو متوليك ومواليك، فإن نطقت فبأذكاره، وإن نظرت فبأنواره، وإن تحركت فبأقداره، وإن بطشت فباقتداره، فهنالك ذهبت الاثنينية واستحالت البينية، فإذا رسخ قدمك وتمكن سرك وحار سكرك، قلت: هو، وإن غاب وجدك وتجاوز بك سكرك عن حد الثبوت، قلت: أنا، فأنت في الأول متمكن، وفي الثاني متلون.

ومن هنا أشكل على الأفهام حل رمز هذا الكلام فقائل يقول: زنديق، فيقتل. وقائل يقول: صديق، فيحمل. وقائل يقول: مغلوب عليه فيهمل. فهو من حيث تحقيق حاله محقق في علمه، والذي حكم في قتله مصيب في حكمه إذ

الشريعة لها حدود من تعداها أقيمت عليه الحدود، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

والحقيقة لها شهود خارج عن طور هذا الوجود، وما مثال ذلك إلا مثال ملك أوقف أحد عبيده على بابه وأمره بلزوم مقامه وأن لا يتجاوز حده المحدود وأمره أن من تعداه وأراد الدخول إلى الملك والمتجاوز عن ذلك الحد أن يقتله أو يذبه ويمنعه الدخول ثم اختص عبداً آخر، وأذن له أن يدخل عليه ويتجاوز إلى حرمه وأن يطلع على سره بغير إذنه، ولا يشاور من هو واقف على الباب، فلما أراد الدخول شعر ذلك المأمور له بالمنع، فلما دخل بغير إذنه وتجاوز الحد قتله فالقاتل في الحقيقة مجتهد مصيب بإمضاء أمر الملك والموقوف عند حدوده والمقتول شهيد مرحوم مقرب غير متعد فى قتله بما خصه به الملك فأذن له فى الدخول عليه بغير إذنٍ والاطلاع على سره ومشاهدة معانيه.

فهذا شأن هذه الشريعة في إقامة الحدود محافظة للعهود، وهذا شأن أهل الحقيقة في خصوصية الشهود ومشاهدة المعبود.

فالشريعة إقامة بوظائف العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية، فالشريعة مجاهدة والحقيقة مشاهدة ولا تباين بينهما إذ هما متلازمان.

إذ الطريق إلى الله سبحانه لها ظاهر وباطن، فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة فبطون الحقيقة في الشريعة كبطون الزبد في لبنه أو الكنز فى معدنه

فبذوب مخض اللبن أو صفر المعدن لا يظفر من اللبن بزبده ولا يفوز من المعدن ببلوغ قصده:

فالمراد من الحقيقة والشريعة إقامة العبودية على الوجه المراد منك، وكل شريعة لا حقيقة لها فهي عاطلة، وكل حقيقة لا شريعة معها فهي باطلة.

ومصداق ذلك قوله عليه ﷺ لحارثة: «**يا حارثة كيف أصبحت؟** قال أصبحت مؤمناً حقاً، **فقال:** «**لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟** فقال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وإلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعاوون، فقال عليه السلام: «**عرفت فالزم**[1] ».

فالشريعة حق والحقيقة حقيقتها، فالشريعة القيام بالأوامر، والحقيقة شاهدة الأمر، والحقيقة والشريعة يجمعهما كلمتان وهو قوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥] فإياك نعبد شريعة، وإياك نستعين حقيقة.

ثم اعلم أن العلم علمان علم الظاهر للشريعة، وعلم الباطن للحقيقة. قال رسول الله ﷺ: «**العلم علمان علم باللسان وعلم بالقلب، فأما علم اللسان فهو حجة الله للعباد، وأما علم القلب فهو العلم الأعلى الذي لا يخشى الله**

(١) أورده العقيلي في كتاب «الضعفاء»، وعبد بن حميد في «المنتخب من مسنده».

العباد إلا به[1] » فعلم القلب هو العلم اللدني الذي لم يسطر في الطـــروس، و لم يحفظ في الدروس وإنما هو تلقين من الله بغير واسطة ملك ولا سفارة رسول.

كما أن الخضر عليه السلام علم بالعلم اللدني ما لم يعلمه موســـى بـــالعلم الوحى، فقتل تلك النفس الزكية بغير نفس. هذا على ظاهر الشـــرع عـــدوان محض لكن ظهر تحقيق فعله بعلم آخر لدني لم ينقل من الكتب والأوراق، وإنما جاء وحياً من الملك الخلاق، فوجب على موسى عليه الســـلام إنكـــار ذلـــك واستقباحه قياماً بالحدود، وعملاً بالشريعة إذ هو مشرع ومُقْتَدًا به، فلو سكت عن الإنكار لاستحق الإنكار؛ ولذلك تأدب الخضر معه بقوله: ﴿**إِنَّـــكَ لَـــن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾ [الكهف: ٦٧] وهذا غاية الأدب من الخضر لأنه علم أن بدا منه ما لا تقره الشريعة، فقال: ﴿**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾ [الكهـــف: ٦٧] على ما يخالف الشريعة.

ثم لما أعلمه الخضر بما لم يدخل في علم الشريعة علم موسى عليه السلام أن الشريعة جسد والحقيقة روحها، وإذا لم يكن للشريعة سفينة غرق ملاحها.

فإن قال قائل فكيف تصح دعوى من ادعى الأنانية؟ وكيف يأوَّل؟ وعلـــى أى شيء يحمل؟ وما نظير ذلك في الخارج؟ وما مثاله في المحسوس لتقبله العقول وتسلمه النفوس؟

---

(١) رواه الدارمي في سننه بلفظ: «العلم علمان فعلم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم».

فأقول: اعلم أن المحبة لطيفة روحانية تستولي بلطيف روحانيتها على كثيف جثمانية المحب، فيذهب اللطيف الكثيف، وتتلاشى الجثمانية بالروحانية لقوة سلطان المحبة، وذوب المحب تحت قهرها، فإن لنارها احتكاماً، ولسلطانها صطلاحاً فإذا آذنت بحرارتها تدمر كل شيء بأمر ربها، فمحال أن يثبت مع محبة سواها أو يثوي مثواها.

وما مثال فناء المحب في بقاء المحبوب إلا مثال النار إذا استولت بلطافة روحانيتها على كثافة جثمانية الخشب والحطب، وتبقى روحانية اللهب فالذي تشاهده من الدخان الصاعد من الخشب في بداية استيلاء النار عليه، فإذا استحكمت النار ذهبت ذاتية الخشب وانقطع الدخان.

فكذلك ما يتصاعد من بخارات حسك وخيالات نفسك في بدايتك، فإذا دام استيلاء نار المحبة ذهبت ذاتية صفاتك، وقامت بصفاتها عن صفاتك، وبوجودها عن وجودك.

ومثال كُمُوْنِ المحبة في ذاتية المحبوب وسلب ذاتية المحب عن صفاتها ككمون نار في ذاتية الماء الحار، فأنت تظنه في الصورة ماءً يغرق، وهو في الحقيقة نار تحرق فلو أدنيت منه شيئاً لأحرقه.

فإن قلت أن المُحرِق هو النار فأين الماء؟ وإن قلت أن المُغْرِق هو الماء فأين النار؟ ولقد أشرت إلى ذلك فقلت:

نار المحبة أحرقت أحشائي	ومدامعي تنهل كالأنواء
فأنا الحريق بأضلعي وأنا الـ	غريق بأدمعي يا منقذ الغرقاء
ومن العجائب أن نار تحرُّقي	تزداد وقْدًا عند فرط بكائي
فالنار والماء القراح تآلفا	هذا لعمري أعجب الأشياء

فإن قلت: فكيف ينبغي للقديم أن يحل في الحادث؟ وكيف يجوز للمخلوق أن يتصف بصفات الخالق؟ وما وجه قوله: «**كنت له سمعاً وبصراً، فبي يسمع وبي يبصر**[1]»، فأقول: ألا ترى أن النار كيف كُسيَتْ صفتها للماء بواسطة الحجاب حتى عاد الماء في الصُّوَر ماءً، وفي المعنى ناراً يفعل فعل النار في إحراقها من غير أن تتحيز[2] النار في ذات الماء، ولا اتصلت به ولا مازجته ولا جانسته، فهي متصلة بالذات منفصلة بالذات، وإنما بواسطة قرب الماء من النار كسته صفتها النارية فصار محرقاً؟! فكذلك الحق سبحانه وتعالى بواسطة قرب عبده منه وإقباله عليه كساه الله سبحانه وتعالى صفة النارية من غير تحيز ولا اتصال ولا انفصال ويضرب الله الأمثال.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) في طبعةٍ للكتاب: (يتحيز) بالياء التحتية بدل التاء الفوقية، والصحيح المثبت.

فصل

واعلم أن المحبوب أبداً يسلب بلطافة خاصية محبته، ويجذب أجزاءها إليه بقوة سلطانه عليه، كما أن المغناطيس تعلقت به أجزاء الحديد وانجذب إليه بذاته فهو يدور معه حيثما دار، وينجذب إليه حيثما سار، فمن أوصاف المحب الميل الدائم بالقلب الهائم ومخالفة اللائم[1]، وقلت في معنى ذلك:

أيها العاشق معنى حسننا	مهرنا غالٍ لمن يخطبنا
جسد مضنىً وروحٌ في العَنَا	وجفونٌ لا تذوق الوَسَنَا
وفؤادٌ ليس فيه غيرنُا	فإذا ما شئت أدِّ الثمنا
فافن إن شئت فناءً سَرْمَدَا	فالفَنَا يُدْنِي إلى ذاك الغنا
واخلع النعلين إن جئت إلى	ذلك الحى ففيه قُدْسُنا
وعن الكونين كن منخلعاً	وأزل ما بيننا من بيتنا
وإذا ما قيل من هَوى فقل	أنا من أهوى ومن أهوى أنا

---

(١) قال الإمام البوصيرى فى «بردة المديح» فى هذا المعنى:

يا لائمى فى الهوى العذرىّ معذرة	منىّ إليك ولو أنصفت لم تلمِ
عدتك حالى ما سرّى بمنكتمٍ	عن الوشاة وما حالى بمستترِ

ثم اعلم أن من أراد كشف هذا السر الخفيّ والكشف الجليّ فليتدبر قوله عليه السلام مخبراً عن ربه عز وجل: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً وفؤاداً**[1] ».

ففهمنا من ذلك أن علاقة وصلة المحبة لما اتصلت بها لطافة وصلة المحبوبية واستمسك بعروة «**حتى أحبه**» قوى سلطان المحبوبية على سلطان المحبة، فأفناه عن ذاته، ونفاه عن صفاته، ثم أقام ببقائه عن فنائه، وخيم بصفاته عن فنائه، تبدلت الصفات بالصفات، وقام الوجود بالوجود، فجاءت خلع الجود على يد «**فبي يسمع وبي يبصر**»، فمحت هنالك الآنية، وذهبت الإثنينية، واستحال تقدير البين[2] في البين وتعذر أن يصير الواحد اثنين، وذلك لاستحالة رؤية بقاء المحب مع المحبوب، وهذا المعنى مودع في سر هذه الأبيات:

ومخطوبة الحسن محجوبة ... ولا تألفن سوى إلفَهَا

إذا ما تجلتْ على عاشقٍ ... وأهدت إليه شَذَا عَرْفِها[3]

تغيبُ الصفاتُ وتفني الذوات ... بما أبرز الحُسْنُ من لطفها

فإن رام عاشقها نظرةً ... ولم يستطع لعُلَى وصفها

أعارته طرفاً رآها به ... فكان البصير لها طرفُهَا

---

(١) سبق تخريج الحديث بمعناه.

(٢) أي استحال تقدير الفراق مع الفراق، وتقدير الفرق مع الفرق.

(٣) شذا العَرْف: الرائحة الطيبة الشديدة الحدّة.

وإلى هذا المعنى أشار من غلب عليه سكره، فقال في شطحاته: «**أنــا الله**»، وذلك لأنه متكلم لا بلسانه، ناظر لا بعينه. سامع لا بأذنه. بل هو متكلم بلسان الحق سامع بسمعه. ناظر ببصره. فبي يسمع وبي يبصر.

وما مثال ذلك إلا مثال رجلٍ بيده سراج في ليلة مظلمة، وهو يهتدي بنور ذلك السراج ليصل به إلى مترله إلا أنه بين خوف هبوب ريحٍ تطفئه أو تنقص مادة دهنه أو تفرغ فتيلته، فيبقى في ظلمة طريقه قبل أن يصل إلى الحقيقة، فبينما هو بين خوف القطيعة ورجاء الوصل إذ طلعت عليه الشمس، فنظر فإذا هو في المترل، فأمن هنالك طرفه أن يضل، وقدمه أن تزل ونوره أن يقل.

فكذلك طلوع أنوار المعارف على ظلمة ليل العارف تذهب بظلمة الأشباح وتغلب ضياء سراج الأرواح. قد استولى عليها الاستغراق في أشعة ذلك الإشراق فالعارف بنور العرفان يسير، وبحكمه يشير، وفي فضاء أشعته يطير، «**فبي يسمع وبي يبصر**».

ثم اعلم أنه ظهر من سر هذا المعنى سر قوله تعالى: «**ما وسعني سمواتي ولا أرضي، ووسعني قلب عبدي المؤمن**[1]»، فذاك الوسع في الحقيقة لمن تدبر أو تفكر أو تبصر إنما الله وَسِعَ نفسه وما وسعه غيره؛ لأنه وسع كل شيء، وذلك

(١) سبق الكلام على الحديث.

أنه ثبت أن العبد لما انخلع عن صفاته الفانية خلع عليه السيد صفاته الباقية، وهو قوله «**كنت له سمعاً وبصراً وفؤاداً**[1]».

فذلك الفؤاد الذي خلعه عليه هو الفؤاد الذي وسعه؛ لأن الفؤاد والقلب اسمان لشيء واحد، فثبت أن ما وسعه في الحقيقة إلا هو ليس هو القلب الصنوبري الشكل؛ لأن ذلك مضغة من لحم ودم مُحْدَث الوجود، وواجد الوجود سبحانه وتعالى متره عن الحلول في الحادث المحدود.

ومعنىً آخر في سر هذا الحديث، وهو أن تعلم أن هذا الوسع يستحيل أن يكون وسعاً بالذات؛ لأن الله تعالى لا يوصف بذلك، وإنما هو وسع بالصفات وصفات الله تعالى على قسمين: نفي، وإثبات.

فينفي عنه ما يستحيل عليه كالشبيه والمثيل والعديل والشريك، والضدّ والندّ والحدّ والقدّ والعدّ، والعجز والضعف والنقص، وما شابه ذلك.

ويثبت له ما يجب له كالعلم والقدرة والإرادة، والسمع والبصر والكلام، وما شابه ذلك.

فإذا علمت بقلبك ما يستحيل عليه، وما يجب له، فكأنك قد أحطت بصفاته فتكون قد وسعته بالصفات لا بالذات؛ فهذا معنى: «**ووسعني قلب عبدي المؤمن**».

---

(١) سبق تخريج الحديث.

والحق سبحانه قد جمع معاني آياته وصفاته وجواهر حِكَمِـــهِ وكلماتـــه في صدفة كلمة الإخلاص، ثم أطلع الخواص على ما فيها من الخواص؛ وهى كلمة أولها نفى وآخرها إثبات، دخل أولها على القلب فخلا ثم تمكن آخرهـــا مـــن القلب فجلا، فنسخت ثم رسخت[1]، وسلبت ثم أوجبت، ومحت ثم أثبتـــت، ونقضت ثم عقدت، وأفنت ثم أبقت، فأولها يسير إلى الفناء، وآخِرها يشـــير إلى البقاء.

فإذا قلت «لا إله»، فقد فنى كل شىء، وإذا قلت «إلا الله»، فلم يبق شـــىء سوى الله. قال الله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨].

ثم اعلم أن جوهرة هذه الصدفة، وكعبة حرمها، وحجر كعبتها، ومصـــلَّى قبلتها وروضة حضرتها، وزهرة روضتها، وثمرة زهرتها، وبيت قصيدتها، ومعنى صورتها الذي يشير سويداء القلب إليه، وتنعكف السرائر بصفائها عليه اســـم الجلالة من قولك: «إلا الله»؛ لأنه هو الاسم الأعظم للجناب المعظم فهو المقصود من كلمة الإخلاص[2].

---

(١) النسخ: من معانيه الإزالة، أى: أزالت ما كان فى القلب من الأغيار ومما هو سوى الله تعالى حتى يرسخ العلم بالله فى القلب ... .

(٢) والاسم الأعظم هو الذى يتضمن سائر الأسماء فى مضمونه وكلها تخرج منه، وتندرج تحته، وقد قيل أن الاسم الأعظم هو ذو الجلال والإكرام، وقيل غير ذلك.

وإنما جاءت لفظة «لا إله» دالة عليه، ومشيرة إليه كالحاجب بين يديه ألا ترى أنه أتى بهذا الاسم آخر الكلمة مشيراً أن لا شيء بعده، ولفظة «لا إله» تنادى ولا شيء قبله؟! ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

ثم ابتدأ هذا الاسم الشريف بحرف الألف لما فيه من الدلالة عليه والإشارة إليه، فإن معاني الربوبية مندمجة مندرجة في هذا الاسم مودعة فيه؛ فلذلك ابتدأ بظهوره لعباده يستدلون به عليه، ويصلون إليه إذ لا سبيل إلى ذاته، فدلهم بأسمائه وصفاته[١] .

فجعل حرف الألف أول اسم الله، وأول حروف المعجم أول ما خاطب الله تعالى به عباده في أول الوجود بقوله سبحانه: ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فلما ابتدأ بالحروف أشار إلى أوليته وجعله ممتداً طويلاً إشارةً إلى سرمديته وديموميته، وجعله قائماً معتدلاً إشارة إلى قيوميته وعدالته، وجعله صامتاً لا تجويف له إشارة إلى صمديته[٢] ، وجعله منفرداً إشارة إلى فردانيته وأحديته، وجعله تتصل به الحروف ولا يتصل هو بالحروف إشارة إلى افتقار خلقه إليه، وإن الله لغنى عن العالمين.

---

(١) ومن بدائع هذا الاسم الأعظم أنك إذا حذفت الألف منه صار «لله»، فإذا حذفت اللام الأولى صار «لهُ»، فإذا حذفت اللام الثانية صار «هُوْ» بإشباع ضمة الهاء، فبعضه يدل عليه، وكله يدل عليه.

(٢) لأن التجويف يدل على الاحتياج والافتقار بخلاف الصمد فإنه لا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه كل أحد.

فالطائف حول كعبة هذا الاسم أعني اسم الله تعالى أول مـا يكشـف في طوافه عن سر هذا الحرف، ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [الحج: ٢٨] ثم يسعى بين صفا اللام الأولى ومروة اللام الثانية، فإذا تم سـعية وقطـع مندرجة الألف واللام وقف على عرفات الهوية، فكان قائلاً يقول عند الوصول إلى الهاء ها هو المطلوب الذي تعزه القلوب وتحجبه الغيوب، وإلى ذلك أشرت فقلت:

يا سـاقي القـوم مـن شـذاه الكـل لمـا سـقيت تـاهوا

غابوا وبالسـكر فيـك طـابوا وصـرحوا بـالهوى وفـاهوا

يـا عـاذل خلـنى وشـربي فلستَ تدري الشراب مـا هُـوْ

قـم فـاجتلي صـفوة المعـاني في صـفوة الكـاس إذ جـلاه

واسمـع إذا غنـت المثـاني تقول يا هُـوْ لبيـك يـا هُـوْ

ما قلـتُ للقلـبِ أيـن حـبي إلا وقـال الضـمير هـا هُـوْ

ما شـربَ الكـأس واحتسـاه إلا محـبٌ قـد اصـطفاه

ثم اعلم أن «هو» في خاتمة هذا الاسم الشريف، وفيه معنى لطيف، وهو أن قولك: هو حرفان هاء وواو، فالهاء حرف يخرج من آخر مخارج الحروف لأنـه يخرج من داخل الحلق، فهو آخِر الحروف مخرجاً، والواو يخرج من بين الشفتين وهو أول مخارج الحروف، فهو أول الحروف مخرجاً، فأشار إلى ذاتـه بهـذين الحرفين فقال: هو، مشيراً أنه هو الأول وهو الآخِر لا أول قبله ولا آخر بعده،

تتره عن الحلول والترول لا كما يخطر للعقول، فإذا سمعت «**ووسعني قلب عبدي المؤمن**» فاعلم أن القلب غيب، والرب غيب، فاطلع الغيب على الغيب، فكان نزولاً لا حلولاً.

واعلم أن لطيفة ذلك وإشاراته أن القلب خلق كامل الوصف، وله وجهان ظاهر وباطن، فظاهره ترابي أرضي طبيعي مظلم جثماني، وباطنه سمائي علوي نوري روحاني، فكثافة ظاهره وظلمته لمباشرة القوى الطبيعية البشرية، ولطافة باطنه لمواجهة الملكويتات العلوية الربانية الروحانية واستغراقه، فعلى قدر مواجهته لها ومقابلته إياها انطمست عليه أشعة أنوارها، وانجلت لأسراره بأسرارها فشاهدها بالأنوار التي أفاضت عليه، وأدركها بالأسرار التي أبدت إليه، وهذا معنى العكس والمقابلة.

فهو يشهد جمالية محبوبه في مرآة قلبه من غير حصر، ولا تحيز ولا حلول، ولا انفصال ولا اتصال، فهو في المثال كمرآة لها وجهان ظاهرها كثيف مظلم وباطنها لطيف مضيء، فلو قابلها من الكائنات ما قابلها من صغير أو كبير رأيته متمثلاً فيها مع صغر جرمها وكبر المرئى فيها ولو كان جملاً أو جبلاً رأيته بكل أجزائه فيها من غير حلول فيها ولا اتصال بها، ولا تحيز في شيء منها، فكذلك الحق سبحانه وتعالى إذا تجلى على قلب عبده المؤمن يشاهده بعين يقينه، ويجتليه ببصر بصيرته من غير حلول ولا تحيز ولا انفصال ولا اتصال، وأوضح من هذا المقال ما أشرحه في الأبيات:

ولما تجلى مـن أحـب تكرمـا / وأشهدني ذاك الجمـال المعظمـا
تعرف لي حـتى تيقنـت أنـني / أراه بعـيني جهـرةً لا توهمـا
وفي كل حالٍ أجتليـه ولم يـزل / على طَوْر قلبي حيث كنت مكلّما
وما هو في وصـلي بمتصـل ولا / بمنفصل عني وحاشـاه منـهما
وما قَدْرُ مثلي أن يحـيط بقـدره / وأين الثَّرَى من رِفْعة البدر إنمـا
أشاهده في صفو سرى وأجتلـي / جمالاً تعـالى عـزه أن يقسَّـما
كما أن بدر التمّ ينظـر وجهـه / بصفو غدير وهْو في أفق السَّـما

واعلم أن هذه الخصوصية لابن آدم دون الملك، وإنما كان كذلك لما ذكرنا أن الآدمي مخلوق من العالمين الكاملين، ومن اللطيف والكثيف، فـترل القلـب مترلة المرآة في لطيفها وكثيفها؛ لذلك يطبع فيها ما يقابلها من المرئيـات، ولا كذلك الملك فإنه مخلوق من لطيف فقط، فهو كله نور يشف ظاهره وباطنـه، فهو كالزجاجة الشفافة نورها حارق، ولا يتمثل فيها ما يقابلها لعدم الكثيـف الذي يعكس ما يقابلها إليها.

فهذا سر العكس والمقابلة.

وأما المثال الثاني في كثافة ظاهر القلب وظلمته ولطافة باطنـه وصـفائه، كمثال صدفة حشوها درة، فالصدفة لها وجهان وجه مما يلي الـدرة، ووجـه خارج عن سمت الدرة، والوجه الظاهر وهو الخارج عن سمت الدرة مظلم أسود كسائر الأحجار أما الوجه الذي يلي جمال الدرة فاكتسب من صفائها وضيائها

حتى صار كأنه هي وكأنه هو، ولا علة لذلك إلا مواجهته إياها ومقابلته لها واحتجابه عن غير وجهها فكذلك القلب له وجهان وجه مما يلي الجثمانية البشرية ووجه مما يلي عيان جمال الله عز وجل فبالوجه المواجهة الجثمانية كسائر القلوب الحيوانية وبالوجه المواجهة عيان جمال الله عز وجل وقد اكتسب منه نوراً غرق صاحبه فيه واستغرقه في مشاهدته حتى ظن أنه هو حتى قال صاحبه أنا هو.

ولا عجب لقلب قد ملئ بحب الله تعالى لاستغراقه في مشاهدته، فهو غائب في حضرته حاضر في غيبته، غاب في ذكره بمذكوره، ودهش في نظره بمنظوره، فلا عجب أن يقول: أنا هو، فإن هذه دودة البقل لمجاورتها لبقلتها وانقطاعها إليها واستبدادها منها، حتى اتصفت بصفتها، ولبست حلتها حتى لا يفرق بينها وبين بقلتها لغنائها عن الصفات الدودية، وبقيت بالصفات البقلية.

فما بالك بقلب قطعت مادته مما سوى الله تعالى، وجعل غذاؤه ذكر الله سبحانه، وشرابه حب الله تعالى، وحركته بالله سبحانه، وقيامه لله تعالى، وفنى وجوده ببقاء الله تعالى عز وجل، فاستحال تقدير البين في البين، لأنه لم يبق له أثر ولا عين، وهذا كله مبني على أصلين مخلصين من قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

فصل

اعلم أن الله عز وجل يوصف بمحبة عبده، والعبد يوصف بمحبوبه، فمحبة الحق سبحانه لعبده خصوص من عموم إرادته، فالإرادة جامعة لجميع المرادات من الحب والبغض والرضا والسخط والقرب والبعد، وكل ذلك متعلق بالإرادة وإرادته سبحانه واحدة، وإنما الاختلاف في متعلقاتها، فإذا تعلقت إرادته بالتوبة على عبده تسمى رحمة، وإذا تعلقت بالعقوبة تسمى غضباً، وإذا تعلقت بالزُّلْفى والكرامة والتخصيص تسمى محبة.

فالفرق بين الرحمة والمحبة أن الرحمة إرادة البر واللطف والإنعام، والمحبة إرادة القربى والزُّلْفى والكرامة.

ومن الناس من قال: إن محبة الله لعبده هي مدحه والثناء عليه، فتكون محبته له قديمة؛ لأن مدحه قوله وقوله كلامه وكلامه قديم، ومنهم من قال: إنها من صفات فعله؛ لأنها[1] إحسانه إليه وإنعامه عليه وهذا محدث فتكون محبته له محدثة.

ومنهم من وقف، وقال: هذه من صفات الأخبار لأن الله تعالى أخبر بذلك فلا يعلم ما هي، وأما محبة العبد لربه سبحانه وتعالى فهي في حالة لطيفة يعجز عن تفسيرها اللسان، ويقصر عن تحقيقها الإنسان، تحمله الحالة على ترك

(١) في نسخة (لأن)، والصحيح المثبت مراعاةً للمعنى.

الحظوظ وإيثار الحقوق فيترك مراداته لمرادات محبوبه؛ إذ ليس للمحب إرادة مع إرادة محبوبه.

وقد أطلق القوم القول في المحبة بألفاظ مختلفة ومعانٍ متفاوته، فتكلم كل منهم بحسب ذوقه، ونطق على مقدار شوقه.

وكذلك اختلفوا في تسميتها واشتقاقها من حيث اللغة، فقال قوم: الحب اسم لصفاء المودة؛ لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَبُ الأسنان وقيل: الحبب ما يعلو الماء عند المطر الشديد.

فعلى هذه المحبة غليان القلب وفورانه عند العطش، والاهتياج إلى لقاء المحبوب، ويقال: اشتقاق الحب من اللزوم والثبات، يقال: أحب البعير إذا برك لا يقوم، فكأن المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر المحبوب، وقيل: هو مأخوذ من الحب الذي فيه الماء لأنه يمسك ما فيه فلا يسع غير ما امتلأ به.

وأما أقاويل المشايخ في المحبة، فكما ذكرنا آنفاً كل تكلم بحسب ما ذاق[1]، فقيل المحبة محو المحب لصفاته وإثبات المحبوب بذاته، وقيل: مواطأة القلب لمرادات الرب وسُئِل الجنيد رحمة الله عليه عن المحبة، فقال: دخول صفاء المحبوب على البدل من صفاء المحب، وقال الشبلي: سميت المحبة محبة؛ لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب، وقال أيضاً: المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه أحد مثلك، وقال

(١) لأن الأمر كما قال الشاعر: * وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح *

عطاء وقد سئل عن المحبة، فقال: أغصان تغرس تثمر في القلب على قدر العقول، وقال النصراباذي محبة توجب حقن الدماء ومحبة توجب سفك الدماء، وقال الحارث المحاسبي: المحبة ميلك إلى الشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سراً وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

وقال السرى السقطي: لا تصح المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر: يا أنا، وقيل: المحبة نار تحرق القلب، فلم تدع فيه شيئاً سوى المحبوب، وقيل: المحبة نار حطبها أكباد المحبين، وقيل: المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه وقيل المحبة أن تنطبق جميع إرادات المحب على جميع مرادات المحبوب، فلا يبقى له معه إرادة.

وقيل للشبلي: ما بال المحبة مقترنة بالمحنة؟ فقال: لئلا يدعيها كل سَفِلَة[1].

وتذاكر قوم المحبة عند ذي النون، فقال: كفوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها، ثم أنشأ يقول:

الخوف أولى بالمسمَّى إذ ناله ذل الحزن
والحب يجمل بالتَّقى وبالنقيِّ من الدَّرَن

وقال أبو بكر الكناني: جرت مسألة بمكة في المحبة، فتكلم فيها المشايخ فكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا: هات ما عندك يا عراقى، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه

(١) يقال: السَّفِلة -بكسر الفاء- السُّقَّاط من الناس.

بقلبه حرق قلبه بأنوار هويته، وصفا شرابه من كأس وده، وكشف له الحق عن أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن سمع فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا من مزيد - جبرك الله يا تاج العارفين.

وقيل: المحبة أولها يحبهم وآخِرها يحبونه، وبينهما مهج تذوب وأرواح تطير إلى المحبوب.

واعلم أن من لم يسبق له «**يحبهم**» لم يصح له «**يحبونه**»، فسابقة «**يحبهم**» محصلة للاحقة «**يحبونه**»، ولاحقة «**يحبونه**» نتيجة مقدمة «**يحبهم**»، فسابقة «**يحبهم**» لا أول لها ولاحقة «**يحبونه**» لا آخِر لها، فمن ثبت قدمه عند شرب كأس «**يحبهم**» قال: هو، ومن تجاوز به سكره عن حد الثبوت حتى تناول كأسه بكف «**يحبونه**» قال: أنا، فالشارب بكأس «**يحبهم**» متمكن، والشارب بكأس «**يحبونه**» متلون، فالناطق بالأنانية متكلم من وادي المحو بلسان الإثبات، والناطق بالهوية متكلم من وادي الفناء بلسان البقاء وكلاهما ناطق صادق، وللحقيقة موافق؛ لأن من قال: أنا، ما أراد بالأنانية نفسه لأنه مأخوذ من نفسه مجذوب عن حسه، فآخذه وسالبه وجاذبه هو المتكلم على لسانه.

ومثال ذلك قصة أبي يزيد -رحمة الله عليه- حين قال: سبحاني، فأنكروا عليه فقال: حقٌّ سبح نفسه على لسان عبده، فإن الحق إذا أحب عبدا أبدى عليه بادياً منه فغيبه عنه، ويكون البادئ هو الناطق على لسانه.

ثم من علامة المحب التردي برداء المحبوب كما حكى عن بعض المتحابين أنهما ركبا في البحر فسقط أحدهما في البحر، فألقى الآخر نفسه عليه فنزل الغواصون فأخرجوهما سالمين، فقال الأول لصاحبه: أما أنا فسقطت، فأنت لم رميت نفسك في البحر؟! فقال له: أنا غبت بك عني، فتوهمت أنك أنا.

وسئل المجنون أتحب ليلي؟ فقال: لا، فقيل كيف فقال لأن المحبة ذريعة إلى الوصلة، وقد سقطت الوصلة بيني وبين ليلي، فأنا ليلي وليلي أنا؛ وهذا كله معنى قوله: «**كنت له سمعاً وبصراً ويدا**»، ومعنى: «**جعت فلم تطعمني، وظمئت فلم تسقني**».

وأما الناطق بالهوية فإنه متمكن في سكره متحكم في وجده محفوظٌ عليه وقته محروسٌ عليه سره، فهو مأخوذ من نفسه مردود على قلبه، فنى عن نفسه، وفنيت نفسه، فلم يبق له في البين بين، ولا له أثر ولا عين، وعلم أن ليس هو إلا هو، فقال هو.

فصل

ثم اعلم أنه لاح لي من هذه اللمعة لائحة، وشممت من عبيقها أطيب رائحة وهو أنا إذا قلنا إن محبة العبد لربه إنما هى نتيجة محبة العبد لربه، إذ لو لم تكن كذلك لما كانت هذه، ثم إن العبد لا يثبت له قدم في المحبة حتى يفنى العبد عن عبوديته، ولم يبق للعبد في العبد أثر، ولا له منه علم ولا خبر، فعلمنا أن المحب في الحقيقة هو المحبوب والمحبوب هو المحب، فالحق سبحانه وتعالى محب محبوب وخاطب مخطوب ومراد ومريد.

ثم لطيفة أخرى وهي أنه إذا أحبك إنما أحب نفسه؛ لأنك قدرته وصنعته وحكمته، فإذا أحبك أحب صنعته، كالصانع إذا أتقن صنعته وأحكمها وأعجبته أحبها، فما أحب إلا ما عملت يده واستنبطته حكمته، فما كان منك كسباً وفعلاً كان منه خلقاً وتقديراً، وأنت في الحقيقة مسخر لقدرته مستعمل بمشيئته ليس لك من المر شيء، فإذا أرادك لقربه أخذك منك وسلبك عنك، وعراك عن صفاتك الفانية، وخلع عليك صفاته الباقية «**في يسمع وبي يبصر**» ثم أقامك مقام نفسه، وأقام نفسه مقامك «**مرضت فلم تعدني**».

كما فعل بحبيبه ﷺ لما خلع عن قدمى مراده نَعْلَى الكونين: خلع عليه خلعة قاب قوسين، وذلك بعد ارتحاله عن الوطنين الروح والجسد، وانخلاعه عن الأصلين العلم والعمل، وانتزاعه عن الوصفين السعادة والشقاوة، وإعراضه عن الحالتين السابقة واللاحقة، وذهابه عن الإشارتين وهى: لي ولك، وأنا وأنت،

ومعي ومعك؛ لأن هذه كلها كلمات مأخوذة من صفات البشرية مشيرة إليها، فارتحل عنها وسار إليه بلا واسطة، ووقف مع مشاهدة الحق متلقياً ما يرد منه من أسرار المكانة والمشاهدة، وليس له فيه أثر فهو معه بلا هو، ومشاهدة بلا كيف، محاضرةً بلا أين، فلما انخلع عن الكل سلم إليه الكل، فأقامه مقام نفسه؛ لأن لطافة وُصْلَة المحبة أسقطت ما بينهما من الوسائط لاتحاد صفة المحبة، وصفاء مزاج الصفوة، فقال تعالى مخبراً عن قيامه له مقام نفسه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾** [الفتح: ١٠]، وقال سبحانه: **﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾** [النساء: ٨٠] وقال عز وجل: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران: ٣١].

وروى أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله أعذرني، فإن لي قلباً واحداً، فقال لها: «**لا تشغلي قلبك، فإنه من أحب الله أحبني، ومن أحبني أحب الله**».

ثم بقي من ذلك الكأس الذي شربه رسول الله ﷺ بقية شراب شربه من لم يبق له من نفسه بقية، فشربوا من فضلة شربه، وسكروا من نشوة سكره، وفي ذلك قلت:

شربت حميا حبكم مذ عرفتكم ... على ظمأ مني فزاد تلهبي
فلا مورد للعالمين كموردي ... ولا مشرب للعاشقين كمشربي
فلي رتبة تعلو على كل رتبة ... ولي منصب يسمو على كل منصبِ

فانظر إلى لطافة وصلة المحبة الأزلية القديمة كيف يصفو مزاجها ويخفي طي اندماجها واندراجها؟! كيف سرت في الأسرار وجرت في مجاري الأفكار حتى حصلت ما في الصدور بمحصولها وملكت ما في القلوب بوصولها، وطنبت في عَرَصَات الأحشاء بخيامها، ونسخت سائر الأحكام بأحكامها؟! فبان المحب من البين، وغاب عن العين، ثم قام الحبيب مقام محبه في تقاضي الدَّيْن، فقال: «**مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني**»، ولطيف هذا المعنى يظهر في لطيف ما أشرت إليه في هذه الأبيات:

ولقد تصافينا المحبة بيننا
فأنا ومن أهوى كشيءٍ واحد
لا زلت أقرب منه حتى صار لي
بصري وسمعي حيث كنت وساعدي
فإذا رأيت فلا أرى إلا به
وإذا بطشت فلا يزال مساعدي
إن شئت شاء وإن أمرت فأمره
أمري فقد بُلِّغْتُ منه مقاصدي
فأنا الذي أهوى ومن أهوى أنا
ما شاء يصنع حاسدٍ ومعاندي

فصل

ثم اعلم وفقك الله أن الله تعالى لا يوصف بشيء مما أشرنا إليه في الأحاديث ولا في غيرها بحلول ولا نزول، ولا اتصال ولا انفصال، ولا ملامسة ولا مجانسة فاحذر أن يختلج في فهمك أو همك شيء من ذلك، فتهوى في المهالك فكل ما قدرته في بالك فالله تعالى بخلاف ذلك، وأين الحادث الفاني من القديم الباقي؟! وأين العبد الذليل من المولى الجليل؟! فإن فهمت من قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦]، ومن قوله: «**من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً**[1]».

فهذا وأشباهه إن خطر ببالك أو تصور في خيالك أن ذلك قرب مسافة ومشي جارحة، ونزول وانتقال، فأنت لا شك هالك[2]، والله بخلاف ذلك منزه عن السلوك، وقربك منه في المسالك، وإنما معنى قربه منك وقربك منه بالخدمة، وهو يتقرب إليك بالرحمة، وأنت تتقرب إليه بالسجود، وهو يتقرب بالجود، وأنت تتقرب بالطاعة، وهو يتقرب بتوفيق الاستطاعة.

---

(١) سبق تخريج الحديث.

(٢) وهذا وأشباهه مما قد وقع فيه أمثال الشيخ ابن عثيمين ومن تبعه من الوهابية أحد آفات هذا الزمان حيث قال: ينزل بذاته إلى السماء الدنيا –تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً– فليحذر كل مسلم من هذه الأقاويل الشنيعة، ومن أصحابها، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

قال عليه الصلاة والسلام مخبراً عن ربه: «**إن أفضل ما يتقرب به عبادي إلى أداء ما افترضت عليهم**»، فأخبر سبحانه عباده أن تقربهم إليه بالعبادة.

ثم قربه منك في اليوم ما خصك به من معرفته ومحبته وطاعته، وقربه منك في غدٍ مما يحصل من مشاهدته ومخاطبته شفاهًا وكِفَاحًا.

ثم هو في الحقيقة أقرب إلى كل شيء من كل شيء، ليس شيء أقرب إليه من شيء، وهو أبعد عن كل شيء من كل شيء، ليس شيء أبعد عنه من شيء فهو في قربه بعيد، وفي بعده قريب.

وقربه من خلقه على ثلاثة أقسام: الأول: قرب عام، وهو العلم والقدرة والإرادة، وهو قوله تعالى: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ [المجادلة: ٧]، والثاني: قرب الخاصة من المؤمنين، وهو قرب الرحمة والبر واللطف، والثاني في ذلك قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد: ٤]، والثالث: قرب خاصة الخاصة من المقربين، وهو قرب الحفظ والكلاءة والنصر والإجابة، وذلك للأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وهو قوله تعالى: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق: ١٦].

فالعبد له في قربه ثلاثة مراتب: الأول: قرب الأبدان وهو بالعمل بالأركان الثاني: قرب القلب وهو التصديق والإيمان، والثالث: قرب الروح بالتحقيق والإحسان.

ثم الحق سبحانه أقرب إلى عين الإنسان من الإنسان، ومن الآماق إلى الأجفان، موجود في كل مكان ما خلا منه مكان، متره من المكان والزمان مقدس عن التمكين في إمكان، ويكفيك ما في هذه الأبيات من البيان:

طريق الوصل سهل إن تردني
ففي معناك فاطلبني تجدني
قريب حيث كنت وحيث تغدو
وحيث تروح فاطلبني تجدني
ولم أك غـــائباً فتظن أني
بعـــيد عنك فاطلبني تجدني
وإني منك أقرب منك حتى
كأنك في اتحاد القرب أني
وإني منك في قرب وبعد
كقاب القوس فاطلبني تجدني
فلا تسأل من العشاق عني
ولكن يا قتيل الشوق سلني
وإن تك قد ظمئت إلى شوقاً
فقاطع كل من هوى وصلني
وصرح باسم من هوى ودعني
من الواشين وما نقلوه عني
وإن تك تبتغي عني بديلاً
فقاطعني وودعني ودعني
ستذكرني إذا جربت غيري
وتحمد كل أمر كان مني

فصل

ثم اعلم أن السيد البر اللطيف يلاطف عبده الضعيف فيعامله بصفة الإفضال لا بصفة الجلال، فإنه لو عاملك بصفة جلاله لتقطعت نياط قلبك لفقد الوصول إليه، وإنما يعاملك بصفات لطفه، ويتعطف عليك من تعطفات عطفه، فكلما زدته تعظيماً زادك تكريماً، وكلما فطم العبد نفسه عن ثدي حسه وجنسه غذاه بلبان لطفه وأنسه، وكلما قطع عن بشريته مادة مألوفه أمده بمدد معروفه.

ألا ترى أن اللبلابة وهي حشيشة حمرا لا ورق لها تطلع إلى جانب الكرمة وتلتف بها، فتشب معها وتنمو بنموها، وتخضر بخضرها لا تبالي، فلو قطعت تلك اللبلابة من أصلها ومنبتها لبقيت ببقاء الكرمة تنمو بنموها وتخضر بخضرها لا تبالي بما قطعت عنه، ولا بما فصلت منه.

فما بالك بمن تلبلبت لبلابة قلبه بكرم كرمه، وانعطفت عليه ومالت إليه وانقطعت مادها عما سواه، فلم تعرف إلا إياه فذكره مصحوبها، وحبه مطعومها ومشروبها. قال عليه السلام: «**إني لست كأحدكم أني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»[1]، فليس هذا من طعام بخبز وإدام، وإنما هو طعام بِرٍّ وإنعام، وفضلٍ وإكرام ومحبةٍ واحترام، وكان عليه السلام يشغله ما يفيض عليه من

---

(١) رواه البخاري في كتاب «الصوم» باب «الوصال ومن قال ليس في الليل صيام» بلفظ: «إني لست مثلكم إني أطعم وأسقى».

للإنعام الوحيّ والإمداد الغيبـيّ والشهود القربى عن الطعام والشراب، وفي ذلك قلت أبياتاً:

يا عذولي سلم إلى قيادي
ثم دعني فيما عليك رشادي
حبه راحتي وروح حياتي
وكذا ذكره بلاغي وزادي
وإذا ما مرضت فهو طبيبي
كلما عادني بلغت مرادي
وإذا ما ضللت أو ضل ركبي
عن حماه فوجهه لي هادي
يا عذولي فكن عليه عذيري
أو فقل لي ما حيلتي واعتمادي
إن تلمني أو لا تلمني فإني
حبه مذهبي وحسن اعتقادي

فكان رسول الله ﷺ تارة يؤخذ منه فيقول: «**لست كأحدكم**» وتارة يرد عليه فيقول: «**إنما أنا بشر مثلكم**»، وتارة تستغرقه المشاهدات الربانية فيقول: «**لي وقت لا يسعني فيه غير ربي**»، وتارة تختطفه الجذبات القربية، فيقول: «**ما أدري ما يفعل بي ولا بكم**».

ثم اعلم أن الواردات التي كانت ترد عليه عليه الصلاة والسلام ثلاثة موارد لكل مورد منها مورد ومصدر، وهي الأرواح الثلاثة: الروح الأمين، وهو جبريل وروح القدس، وروح الأمر.

فمورد الروح الأمين ظاهر القلب وهو الفؤاد، وللفؤاد سمع وبصر، وهو قوله تعالى: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾ [النجم: ١١]، فالروح الأمين يرد صَفْح[1] القلب، وهو قوله تعالى: ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ**﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، ومصدره من عالم سدرة المنتهى إذ إليها تنتهي علوم الخلائق، فيرد بمواهب الأفعال، وهذا علم اليقين.

وروح القدس مورده باطن القلب وهو السويداء، وهو محل النَّفْث، وإليه إشارته عليه السلام بقوله: «**إن روح القدس نفث في روعي**»، والنفث ما يلقيه الله تعالى إلى عبده إلهاما كشفياً بمشاهدة عين اليقين، ومصدره من عالم القدرة، فيرد بحقائق الأسماء.

وروح الأمر مورده السر، وهو باطن السويداء، ومصدره من عين القدرة المطلقة الربانية والحضرة الوجدانية، فيرد بتجليات أنوار الصفات، وهذه حقيقة حق اليقين. قال الله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ**﴾ [الشورى: ٥٢]، ومن هنا: ﴿ **فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**﴾ [النجم: ١٠].

---

(١) صَفْح الجبل: ناحيته، وهو مثل سفح الجبل.

فالروح الأمين ينطق عن عالم الملك، وروح القدس ينطق عن عالم الملكوت وروح الأمر ينطق عن عالم الجبروت.

فالروح الأمين إذا تجلى لصفح القلب اصطلم وغاب غيبة الهيبة، ومن هنا «**زملوني زملوني**».[1]

وروح القدس إذا استولى على القلب غلب غيبة الحضور بمشاهدة العلويات الملكوتية، ومن هنا «**لست كأحدكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني**»[2] ثم يرجع من غيبة الحضور فيثبت ما شاهده من الملكوت في عالم الملك وهو معنى قوله تعالى: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [النحل: ١٠٢].

ومن هنا إشارة «**إنه ليغان على قلبي**» ليس ذلك غين حجاب ولا غفلة، فمن ظن ذلك بنبيه فقد أخطأ في حقه، وأساء ظنه به، وإنما كان عليه السلام تستغرقه أنوار التجليات فيغيب بذلك الحضور ثم يسأل الله تعالى أن يستر عليه حاله فيطلب المغفرة وهي الستر؛ لأنها مأخوذة من المِغْفَر[3]، فكأنه سأل أن يستر حاله عليه غيرةً منه عليه؛ لأن الخواص لو دام لهم التجلي وما يكاشفهم به لتلاشوا عند ظهور سلطان الحقيقة، فالستر لهم هنالك رحمة.

---

(١) رواه البخاري في كتاب «تفسير القرآن» باب «حدثنا قتيبة....».

(٢) سبق تخريج الحديث.

(٣) المِغفَر: دِرْع يلبس تحت القلنسوة.

وأما الستر للعوام فعقوبة لأنه حجاب لهم، وغطاء على عمى بصـــائرهم، فهم مستترون عنه بغيره.

وأما روح الأمر إذا استولى أخذه منه، وغيبه عنه حتى ينظر الحقائق الربانية في دار الفردانية، ومن هنا «**لي وقت لا يسعني فيه غير ربي**[1] ».

فروح القدس متلقٍ من روح الأمر، والروح الأمين متلقٍ من روح القـــدس وهو سر قوله تعالى: **﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُـــه﴾** [طه: ١١٤]، ولو لم يكن متلقياً من غير جبريل لما كان يســـابق جبريـــل في تلاوته، فكم بين يا محمد أقرأ، وهو يقول: يا صاحِ[2] لست بقارئ ثم يرجـــع إلى خديجة -رضي الله عنها- يقول: «**زملوني زملوني**»[3] إشارة إلى البـــدايات الوحيية، ويوم: **﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾** إشارة إلى النهايات الكشفية، ونظير ذلك لأهـــل البدايات قوله تعالى **﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾** [الحـــج: ٣٥] أي: انزعجت وخافت، وهذه صفة أهل البدايات.

وأما أهل النهاية فصفتهم التمكين، والثبات، والطمأنينة. قال الله ســـبحانه وتعالى واصفاً لسهم: **﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** [الرعد: ٢٨].

---

(١) سبق الكلام عليه.

(٢) يا صاحِ: ترخيم يا صاحبي.

(٣) سبق تخريج الحديث.

وكان معروف الكرخي -رحمه الله- كثيراً ما يقول في مجلسه: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، فقام إليه رجل من أصحابه، وقال: يا سيدي إذا كان عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، فعند ذكر الله تعالى ماذا ينزل؟ فغشي على الشيخ ساعة ثم أفاق، وقال: عند ذكر الله تنزل الطمأنينة **﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** [الرعد: ٢٨].

ومن هنا عرف التلوين والتمكين، فالتلوين عبارة عن الانتقال من حال إلى حال، وتحول من وصفٍ إلى وصفٍ وترقٍ من مقامٍ إلى مقام، فهذا كله وصف من هو في الطريق لم يصل إلى الآن، فما دام في الطريق فهو متلون، فإذا وصل المنزل فهو متمكّن.

والذي يترجح عندي أن المتلون قابل للزيادة والنقص في حاله ومقامه بحسب تقلبه ببقائه مع بشريته، ورجوعه إليها.

والمتمكّن أمن من النقص لخنوس[1] إحساسه وانخلاعه عن نفسه، وفنائه عن جثمانيته؛ لاستيلاء سلطان الحقيقة عليه، ومحوه في ثبوتها وفنائه في بقائها، فهو متمكن من حاله لا يرده الحق سبحانه وتعالى إلى معلومات نفسه، ولا مألوفات جنسه، بل هو متمكّن من حاله بحسب ما يستحق من الحق سبحانه وتعالى.

---

(١) خنوس الإحساس: أي تأخره.

نكتة: فعلى هذا التقدير كان موسى صلى الله عليه وسلم متلوناً إذ رجع من حضرة المناجاة والمكالمة، وقد أثر حاله على وجهه، فلا ينظر أحد إليه إلا عمى لتكمن حاله فيه حتى أذن الله له أن يتبرقع.

ومحمد عليه السلام كان متمكّناً لأنه رجع من حضرة المشاهدة، ولم يؤثر فيه حاله، ولا تغير عليه أمر، فهو متمكّن لأنه لم يزل في حضرة ومشاهدة، فنقل من حضرة إلى حضرة، ومن رؤية إلى رؤية، وهو معنى قوله عليه السلام: «**لست كأحدكم**»(١) وكقوله: «**لي وقت لا يسعني فيه غير ربي**».(٢)

ونظير هذا قصة زليخا وصواحباها كن وصواحباها أصحاب تلوين، فلذلك لم يطقن الثبوت عند تجلي جمال يوسف عليه السلام بل دهشن بمشاهدته حتى أثر فيهن الحال، وأخرجهن عن طور الإحساس، واعتراهن الالتباس حتى قلن: ﴿**حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾ [يوسف: ٣١] وقطعن أيديهم ولم يشعرن، وأما زليخا فلتمكنها في حالها ما تغير عليها الحال، ولا أثر ذلك فيها؛ لأنها لم تزل في مشاهدة يوسف حاضرةً معه، وقد أنشد لسان حالها مترجماً عن حالها، فقلت في ذلك:

إذا لم يكن معنى حديثك لي يروى
فلا مهجتي تشفى ولا كبدى تروى
نظرت فلم أنظر سواك أحبه
ولولاك ما طاب الهوى للذي يهوى

---

(١) ، (٢) سبق الكلام على الحديثين.

ولما اجتلاك الفكر في خلوة الرضا

وغيِّبت قال الناس ضلت به الأهوا

لعمرك ما ضل المحب وما غوى

ولكنهم لما عموا أخطاؤا الفتوى

فلو شاهدوا معنى جمالك مثلما

شهدت بعين القلب ما أنكروا الدعوى

خلعت عذاري في هواك ولم يكن

خليع عذارٍ سره في الهوى نجوى

ومزقت أثواب الوقار هتكاً

عليك وطابت في محبتك البلوى

فما في الهوى شكوى ولو مزق الحشا

وعار على العشاق أن يعلنوا الشكوى

وما علموا للحب داء سوى الهوى

وعندي أسباب الهوى كلها أدوا

وكم كنت من خوف الهوى أتقي الهوى

ولكنما حكم الهوى غلب التقوى

فصل

واعلم أن التلون والتمكن وصفان يشيران إلى حالين في محلين، فحال التلوين في محل دار الملك، وحال التمكين في محل دار الملكوت، وهما عالما الغيب والشهادة فمن شهد عالم الغيب غاب عن الشهادة، فلم يبق له رجوع إلى ما غاب عنه، فهو متمكن في شهوده غائباً عن وجوده.

ونسبة ذلك من الآدميّ قلبه وقالبه، فالقوالب عالم الشهادة في دار الملك والقلوب عالم الغيب في دار الملكوت، فجثمانيتك عالم ملكك، وروحانيتك عالم ملكوتك.

فمن أشرفه الله تعالى على جوارحه فاستعملها في مصالحه، فقد ملك دار ملكه، ومن أشهده غيب قلبه وأنزله منازل حبه وقربه، فقد شهد ملكوت ربه.

فأنت مكون من كونين مخلوق من عالمين سفلى وعلوى، ملكى وملكوتى قال الله تعالى: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [الحجر: ٢٩] فكان من التسوية جثمانيتك البشرية، وكان من النفخ روحانيتك المعنوية.

وكل مخلوق خلق من كلمة كن وأنت كذلك، وأنت زدت على ذلك بالتسوية والنفخ فنالك من بركات التسوية حركات جوارحك لخدمته، ونالك من بركات النفخ حركات روحانيتك بمحبته ومعرفته.

فأنت أنموذج الكون ومراد الكون، والكون مراد لا لنفسه بل لأجلك، وأنت مراد لذاتك، والحق سبحانه خلق الكون لأجلك، وخلقك لأجل معرفته

ومحبته ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: يوحدون، وقيل: يعرفون، وهو معنى قوله: «**كنت كنزاً لا أعرف، فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً وتعرفت إليهم، فبي عرفوني**».[1]

ثم اعلم أن الكون نسخة منك، وتزيد على ما في الكون بما خصك به من معارفه وحكمه وأسراره وأنواره وتجلياته ومنازلاته، كما أن الفيل وإن كبر شبحه نسخة من البعوضة وإن صغرت؛ لأن فيها ما في الفيل من جميع أجزاء جوارحه وتزيد عليه بأجنحتها، وقد شرحت ذلك في هذه الأبيات فافهم:

إذا كنت تقرأ علم الحروف ... فشخصك لوح به أسطر
وتمثال ذلك أنموذج ... لكل الوجود لمن يبصر
حروف معانيك لا تنقري ... لذي الجهل كلا ولا تظهر
ومن يك غدا بأسرارها ... فمعروفها عنده منكر
لئن كان جزؤك جزء صغير ... ففيك انطوى العالم الأكبر
فلا ذرة منك إلا غدت ... بها يوزن الكون بل أكثر
ولا قطرة منك إلا وفي ... ينابيع أسرارها أبحر
وكل الوجود إذا قسته ... إليك فذاك هو الأصغر
وما فيه من عرض حاضر ... يزول وأنت به جوهر
فأنت الوجود وكل الوجود ... وما فيك موجود لا يحصر

(١) سبق التعرض للكلام على الحديث.

وفيـــك أشـــعة لاهوتـــه مـــن البـــدر في نـــوره أنـــور
وشمـــس المعـــارف إشـــراقها من الشمس في ضـــوئها أظهـــر
لقد أظهرت سـيماء القلـوب خفايـــا الغيـــوب لمـــن يبصـــر
سمـــاء علـــى قطـــب توحيـــده تـــدور اشـــتياقاً ولا تقصـــر
لهـــا مـــن أشـــعة عرفانـــه نجـــوم بإخلاصـــها تزهـــر
فمشـــرقها أفـــق ســـويدائها ومغربهـــا ســـره المضـــمر
وعـــرش الصـــفاء لهـــا مركـــز إليـــه انتـــهاء كلمـــا يســـطر
هنـــاك المليـــك تجلـــى لهـــا فـــأوحى إليهـــا كلمـــا يـــأمر
فقامـــت بتحقيـــق مـــأموره علـــى أنهـــا أبـــدا تحـــذر
وترتـــاح مربـــع أحبابهـــا ولا عجـــب حيـــث لا يبصـــر
رعـــود الجفـــا إذا زمجـــرت فـــبرق الجفـــا لهـــا مســـفر
وإن أعـــوز الغيـــث حصـــباءها فمـــاء الحيـــاء بهـــا يقطـــر
فـــروض رياضـــتها مزهـــر ورحـــب محبتـــها مثمـــر
تمـــر بهـــا نســـمات القبـــول فيبدو شذا المسك بـــل أعطـــر
ويسرى إلى السر مـــن عرفهـــا لطـــائف تطـــوى ولا تنشـــر
فيســـكرنا نشـــق أنفســـها ومن يـــك مزكـــوم لا يســـكر
يطـــاف بكاســـات راحاتهـــا وفي حانهـــا حلـــل المســـكر

وتتلـــى بســـاحات حاناهـــا   مشـــاني للـــذكر لا تفتـــر
فمن صـم عـن سمـع ألحانهـا   فذاك الشـقي هـو الأخسـر
ومن ظل عـن بابهـا معرضـاً   فـذاك الغـوى هـو المـدبر

فصل

فمن فتح الله عين يقظته وأشهده خفايا سريرته علم أنه لم يكن في الكونين ولا في العالمين من مفترقاته شيء إلا وهو مندمج في طوايا ذاته مندرج في خفايا صفاته، وهذا سر قوله: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»، وقد ظهر لي من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه، وهو أن الله تعالى وضع هـذه الروح الروحانية في هذه الجثمانية لطيفة لاهوتية مودعة في كثيفة ناسوتية دالـة على وحدانيته وربانيته، ووجه الاستدلال بذلك من عشرة أوجه:

الوجه الأول: أن هذا الهيكل الإنساني لما كان مفتقراً إلى مـدبر ومحـرك، وهذه الروح تديره وتحركه، علمنا أن العالم لابد له من محرك ومدبر.

الوجه الثاني: لما كان مدبر الجسد واحداً وهو الروح علمنا أن مدبر هـذا العالم واحد لا شريك له في تدبيره وتقديره لا جائز أن يكون له شريك في ملكه قال الله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقـال تعالى: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَـوْاْ إِلَـى ذِي الْعَـرْشِ**

سَبِيلاً(٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢-٤٣] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

والوجه الثالث: لما كان هذا الجسد لا يتحرك إلا بإرادة الروح وتحريكها له علمنا أنه مريد لما هو كائن في ملكه لا يتحرك بخير أو شر إلا بتقديره وإرادته وقضائه.

الوجه الرابع: لما كان لا يتحرك في الجسد شيء إلا بعلم الروح وشعورها به، ولا يخفى على الروح من حركات الجسد وسكناته شيء علمنا أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

الوجه الخامس: هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء بل هو قريب إلى كل شيء في الجسد، علمنا أنه أقرب إلى كل شيء ليس شيء أقرب إليه من شيء ولا شيء أبعد عنه من شيء لا بمعنى قرب المسافة لأنه متره عن ذلك.

الوجه السادس: لما كان الروح موجوداً قبل وجود الجسد، ويكون موجوداً بعد عدم الجسد علمنا أنه سبحانه موجود قبل كون خلقه، ويكون موجوداً بعد فقد خلقه، مازال ولا يزال وتقدس عن الزوال.

الوجه السابع: لما كان الروح في الجسد لا يعرف له كيفية، علمنا أنه سبحانه متره عن الكيفية.

الوجه الثامن: لما كان الروح في الجسد لا يعرف له أينية، علمنا أنه سبحانه منزه عن الكيفية والأينية، فلا يوصف بأين ولا بكيف، بل الروح موجـود في سائر الجسد ما خلا شيء من الجسد كذلك الحق سبحانه موجود في كل مكان وتنزه عن المكان والزمان.

الوجه التاسع: لما كان الروح في الجسد لا يحس ولا يمس، علمنا أنه تعالى منزه عن الحس واللمس والمس.

الوجه العاشر: لما كان الروح في الجسد لا يدرك بالبصر، علمنا أنه سبحانه لا تدركه الأبصار، ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يشبه بالشـموس والأقمـار ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١] فهذا معنى قولـه: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**» فطوبى لمن عرف وبذنبه اعترف.

ولهذا الحديث تفسير آخر، وهو أن تعرف صفات نفسك على الضد مـن صفات ربك، فمن عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء، ومن عرف نفسه بالجفاء، عرف ربه بالوفاء والعطاء، ومن عرف نفسه كما هي عرف ربه كما هو.

واعلم أنه لا سبيل لك في معرفة إياك كما إياك، فكيف لك سبيل إلى معرفة إياه كما إياه.

فكأنه في قوله: «**من عرف نفسه عرف ربه**» علق مستحيلاً على مسـتحيل لأنه يستحيل أن تعرف نفسك وكيفيتها وكميتها، فإذا كنت لا تطيق أن تصف

نفسك التي هى بين جنبيك بكيفية أو أينية ولا شبحية ولا هيكلية، ولا هي بمرئية فكيف يليق بعبوديتك أن تصف الربوبية بكيف وأين، وهو مقدس عن الكيف والأين؟! وفي ذلك أقول:

قل لمن يفهم عني ما أقول — قصر القول فذا شرح يطول

ثم سر غامض من دونه — ضربت والله أعناق الفحول

أنت لا تعرف إياك ولا — تدر من أنت ولا كيف الوصول

لا ولا تدري صفات ركبت — فيك حارت في خفاياها العقول

أين منك الروح في جوهرها — هل تراها فترى كيف تجول

هذه الأنفاس هل تحصرها — لا ولا تدري متى عنك تزول

أين منك العقل والفهم إذا — غلب النوم فقل لي يا جهول

أنت أكل الخبز لا تعرفه — كيف يجري منك أم كيف تبول

فإذا كانت طواياك التي — بين جنبيك ترى فيها ضلول

كيف تدري من على العرش استوى — لا تقل كيف استوى كيف النزول

كيف يُحْكَى أم تُرَى كيف يُرَى — فلعمري ليس ذا إلا فضول

فهو لا أين ولا كيف له — وهو رب الكيف والكيف يحول

هو فوق الفوق لا فوق له — وهو في كل النواحي لا يزول

جل ذاتاً وصفات وسما — وتعالى قدره عما أقول

واعلم أن من عرف نفسه عرف ربه، وعرف ما يراد منه، فأشغل نفسه واستعملها فيما خلقت له، فأوقفها في مواقف العبودية للقيام بحقوق الربوبية ومتى اشتغلت بمعارضة الربوبية فاتتها العبودية، و لم تدرك الربوبية.

وها أنا أشرح لك صفات ذاتك ومعنى صفاتك لتعلم ما يراد منك في حياتك ومماتك.

واعلم أن الحق سبحانه لما أراد أن يبني صورة آدم من زمان تقادم ابتناها على صورة المدينة، وأتقن فيها من المباني ما يدل على قدرة الباني، وحرك فيها مثانث ومثاني يشيران إلى أنه ليس له ثان، ثم نصب وسط هذه المدينة قصر المملكة وبث حوله أشراك المهلكة،[1] وسمى ذلك القصر بالقلب إذ هو بيت الرب. وجعل مدار هذه المدينة عليه، ومرجع الكل إليه بإشارة الأوان. «**في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب**».[2]

ووضع في هذا القصر سرير العز والسلطان، وأجلس عليه ملكاً يقال له الإيمان، وبث الجوارح في خدمته كالغلمان، فقال اللسان: أنا الترجمان. وقالت العينان: ونحن الحارستان، وقالت الأذنان: ونحن الجاسوسان، وقالت القدمان:

---

(١) الأشراك: جمع شَرَاكة بفتحتين، وهى حبالة الصائد.

(٢) سبق تخريج الحديث.

ونحن الساعيتان، وقالت اليدان: ونحن العاملان، وقال الملكان: ونحن الشاهدان، وقال صاحب الديوان: وكما تدين تدان.

ثم جعل له وزيراً وهو العقل، فقال الوزير: أيها الملك لابد لك من خاصة. تصطفيهم لنفسك خلاصةً يؤثرونك على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة.

فأول ما تحتاج إلى تاج وهو الولاية، وإلى معراج وهو العناية، وإلى دليل وهو الهداية، وإلى مركوب وهو الصدق، وإلى حُلّة وهي السكينة، وإلى صاحب وهو العلم، وإلى بواب وهو الورع، وإلى سياف وهو الحق، وإلى كاتبٍ وهو المراقبة، وإلى سجن وهو الخوف، وإلى ميدان وهو الرجاء، وإلى سراج وهو الحكمة، وإلى نديم وهو الفكر، وإلى خزانة وهو اليقين، وإلى كتر وهو القناعة، وإلى صاحب بريد وهو الفراسة.

ثم أيها الملك تنظر إلى رعيتك بعين الرحمة، وتفتح خزائن الحكمة فتعدل بينهم في القسمة، وتبعث إلى كل واحد قَسْمَه فيقيم به رَسْمَه.

فقال الملك: انظر أنت في الرعية وأزل عنهم الشكية، وتولى تفرقة الجامكية.

فقالت اليدان: أنا على جميع الآلة، وقالت الأسنان: أنا أطحن وأعزل النخالة. وقال الريق: أنا أعجن وأتولى إلى المعدة إرساله، وقالت المعدة: أنا أطبخ وما أزيد على ذلك عمالة، وقالت الكبد: أنا أخذ ما صفا، وأترك الحثالة.

فقال القدر: وأنا أتولى تفرقتها وقسمتها بالعدالة، فأبعث إلى كل عضو ما يطيق احتماله.

فلما فرقت الجامكية نقداً لا حوالة، وصحح الملك أحواله. قال له الوزير: ما بعد النفقة إلا العرض وأداء الفرض، فنادى في جيشك بالطول والعرض لينظر البعض للبعض، قبل أن تبدل الأرض غير الأرض، فنادى مناديه: يا معشر الرعية إن الملك قد أقسم بالأزلية، أن من عدل عن طريق السوية، وكفر بنعمة العطية وأنفقها في الخطيّة، فلقد أفسد النية ونقض البنية، وأولئك هم شر البرية.

وإن للملك عدوا قد سن جوارحه، يقال له: النفس الأمارة، وهي تنازعه الإمارة، واستنصرت عليه بالدنيا الغرارة، وظاهرها الهوى بعث إليها أنصاره.

وجاء الشيطان فكتب له منشور الوزارة. قد شنوا في أرض الملك الغارة، فيا خيل الله اركبي، ومن الأعداء لا تهربي.

فهنالك ركب القلب بين ميسرة خوفه، وميمنة رجائه، ومقدمة توكله وساقة التجائه، متحملة إياك نعبد، ومتمسكة بأذيال وإياك نستعين، فلما وصل بجنوده إلى معبوده بصدق النية نادى مناديه في ناديه إن الله مبتليكم بنهر الدنيا الدنية، فمن شرب منه فليس مني، ومن عول عليه فليتنحَّ عني.

فقال أهل الضرورة: لابد من قيام الصورة، فجاءت مروحة الراحة بإباحة إلا من اغترف غرفة بيده، واعترف بذنبه.

فأما من عدموا الفطنة، ووقعوا في شرك الفتنة، فشربوا وترووا حتى أورثهم البطنة، فلما قابلهم القوم قالوا: لا طاقة لنا اليوم، فقال الذين صبروا ابتغاء وجه الله **﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** [البقرة: ٢٤٩].

فالتقيا بجيشهما في مجمع بحريهما هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج.

فكان التوكل موكلا بالحرص، والزهد محاذياً بالدنيا، والتواضع مدافعاً للعجب، والإخلاص ماحياً للرياء، والتقوى نافية للدعوى، والخوف مواقعاً للهوى، والتسبيح التقديس في محاربة إبليس، فتقدم حزب الله وشعارهم اللهم إنا جعلنا بك أقدامنا فثبت أقدامنا، فإنا لا ندري ما قدامنا، فهزموهم بإذن الله وانتصروا، وما النصر إلا من عند الله، فلم تر منهم إلا مولٍّ دبره وقاصم عمره. وأصبحت منازل الهوى والنفس كأن لم تغن بالأمس، وما زالت بأسرها في أسرها حتى اعترفت بخسرها واتصفت بكسرها، وناداها من له المنة: **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾** [الفجر: ٢٧-٢٨].

يا نفس توبي اليوم من قبل أن	**تفتضحي في الغد بين العباد**
يا نفس إن الله منك اشترى	**بشرط تسليمٍ جميع القياد**
فاستبشري بالبيع واستسلمي	**واصطلحي يا نفس منك الفساد**
أفلست والسلعة مغبونة	**لا تشتري والسوق سوق الكساد**
والركب قد جد مسيراً ولا	**لهول يوم العرض قدمت زاد**

وكلما أبيض مشيبي فلا　　يزداد وجه القلب إلا سواد

واخجلتي واحسرتي إن أكن　　من بين صحبي قد حرمت المراد

فخالفي يا نفس حكم الهوى　　وجاهدي في الله حق الجهاد

وازرعي زرع التقى واصبري　　وصابري في حرب أهل العناد

فصل

وقد أوضحت في هذه الإشارة في إيراد ما يراد من العبد في خدمة الرب **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** [ق: ٣٧]، فإذا اشتغلت بمعرفة من أنت شغلك بمعرفة من هو، ويجوز أن تعرف من هو، ولا يجوز أن تعرف ما هو لأن «مَا» هو سؤال عن ماهية ذاته، ولا ماهية لذاته، و«مَنْ» هو سؤال عن أسمائه وصفاته، وما حصل أهل الأرض والسماء إلا على الصفات والأسماء قال الله تعالى: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾** [الزخرف: ٨٧]، وسر هذا الرمز يظهر من سؤال فرعون لموسى عليه السلام حين قال له موسى: **﴿إنا رسول رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الشعراء: ١٦]. فسأله فرعون: **﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** [الشعراء: ٢٣]، فقال موسى: **﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾** [الشعراء: ٢٤]، وهذا الجواب يسمى جواب العدول لأنه عدل فيه عن مطابقة السؤال لأن فرعون سأل عن ماهية الله سبحانه، وأجاب موسى عن قدرته وصفاته مجادلةً حين خلط في سؤاله، وسأل عما لا يمكن إدراكه فجاز له أن يعدل عن سؤاله.

وقد سئل يحيى بن معاذ الرازي، فقيل له: أخبرنا عن الله تعالى، فقال: إله واحد فقيل: كيف هو؟ فقال: إله قادر، فقيل: فأين هو؟ فقال: بالمرصاد، فقال السائل: لم أسألك عن هذا!! فقال: ما كان غير هذا فهو صفة المخلوقين، فأما صفة الخالق فالذي أخبرت عنه.

وسئل بعض العارفين عن قوله: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: ٥]، فقال: الحق سبحانه عرَّفنا بهذا القول من هو، وما عرفنا ما هو لأنه لا يعرف ما هو إلا هو وقيل لصوفي: أين الله؟ فقال: قبحك الله تطلب مع العين أين -يشير إلى قوله تعالى- ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد: ٤].

وسئل الشبلي عن قوله: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: ٥]، فقال: الرحمن لم يزل والعرش محدث، فالعرش بالرحمن استوى، وسئل ذو النون عن قوله: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: ٥]، فقال: أثبت ذاته ونفى مكانه فهو موجود بذاته والأشياء كلها موجودة بحكمته كما شاء.

وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن الاستواء، فقال: استوى كما أخبر لا كما يخطر للبشر.

وسئل الإمام الشافعي عن الاستواء، فقال: آمنت بلا تشبيه، وصدقت بلا تمثيل واتهمت نفسي في الإدراك، وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك.

وقال أبو حنيفة: من قال لا أعرف الله أفي السماء هو أم في الأرض هو، فقد كفر؛ لأن هذا القول يوهم أن لله مكاناً، ومن توهم أن لله مكاناً فهو مشبه.

وسئل الإمام مالك عن الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وهو الذي ذهب إليه الأئمة الأربعة، ولا خلاف بينهم في ذلك، ومن توهم أن بين أحد من الأئمة اختلافاً في صحة الاعتقاد فقد أعظم الفرية عن أئمة الأمة، وأساء ظنه بأئمة المسلمين.[1]

وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن الشافعي -رضي الله عنهما- فقال: ما الذي أقول فيه، وهو الذي أخرج من قشور التشبيه لبابها، وأطلع على معارفها أربابها وجمع بمذهبه أكنافها وأطناها، فالمحدثون صيادلة والشافعي طبيبهم، والفقهاء أكابر والشافعي كبيرهم.

وسئل الإمام أبو المعالي عن الإمام أحمد، فقال: إن أحمد ضرب بالسياط، ولم يزغ عن سواء الصراط، غسل وجه السنة من غبار البدعة، وكشف الغمة عن عقيدة هذه الأمة.

---

(١) لعل هؤلاء الوهابية أصحاب البدعة والتشبيه والتخييل أن يسمعوا ويقرؤا هذا الكلام الذى يعلوه النور ويخرج من مشكاة الإيمان والإحسان حتى يرتدعوا عن بدعتهم وضلالهم.

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا *** ولكن لا حياة لمن تنادى

وها أنا أذكر لك في التتريه ما يجلو عن قلبك درن التشبيه، فأقول:

يا أيها المدعى لله عرفانا
وقد تفوه بالتوحيد إعلانا
وتطلب الحق بالعقل الضعيف
وبالقياس والرأي تحقيقاً وتبيانا
ظننت جهلاً بأن الله تدركه
ثواقب الفكر أو تدريه إيقانا
أو العقول أحاطته بديهتها
أو هل أقامت به إياه برهانا
أو العلوم وما سطرت في كتب
هل هن إلا على التحقيق عميانا
الله أعظم شأناً أن يحيط به
علم وعقل ورأى جل سلطانا
أذري بك العقل أن عطلته عدماً
وخانك العقل أن صورت جثمانا
إياك ويحك والتعطيل في صفة
واحذر تكن عابداً بالوصف أوثانا
فإن سمعت أحاديث الصفات فقل
آمنت بالله تصديقاً وإيمانا
ورد عـــلم خفـــايـــاه لـــعالمـــه
فإن تأولت قد أولت بهتانا

إن قيل كيف استوى قل كيف شا
ولا تصغي إلى الكيف تضحى ثم ندمانا
أو قيل أين فقل حيث اتجهت تجد
مولاك ما غاب طرفاً لا ولا بانا
هو الذي فوق كل الفوق رتبته
وحيث كنت وجدت الله ديانا
من ظن جهلاً بأن العرش يحمله
قد افترى واجترى ظلماً وعدوانا
العرش والفرش والكرسيّ صنعته
وقد براهنَّ إحكاماً وإتقانا
محجبـــات ولا علـــم ولا خبر
قد حير الكل فقدانا ووجدانا
العرش يطلب من قد عز مطلبه
ولم يزل في طِلاَب الله ولهانا
الخلق في العلم تاهوا في تطلبه
والعلم في الاسم لا ينفك حيرانا
والاسم دل بسرٍ في غوامضه
على المسمى فصار الإسم[1] عنوانا
وعز ذاك المسمى ليس يدركه
خلق ولو جادلوا شيباً وشبانا

---

(1) ثبتت همزة (الاسم) لضرورة الشعر، وإلا فالواجب حذفها.

سارت إليه قلوب العارفين على
عجائب الفكر وحداناً وركبانا
وفارقوا الأهل والأوطان واعتزلوا
وصابروا الليل أحياناً وأزمانا
حتى انتهوا منتهى علم ومعرفة
وكوشفوا ببديع السر إعلانا
هناك طابوا وغابوا عن صفاقم
وألهب الشوق في الأحشاء نيرانا
وعرفوا بجميل الوصف فاغترفوا
وصيروا القلب للعرفان ميدانا
يرون في الناس سكرى من معارفهم
كذاك من عرفوه راح سكرانا
هبت عليهم وقد ناجاهم سحراً
نسيمة عبقت روحاً وريحانا
فأسكنت في قلوب القوم معرفة
وحركت منهم وجداً وأشجانا
إذا بـــدا وتجلى في حضيرتـــه
ساقي المدام وأهدى الكأس ملآنا
ناداهمو سكروا من قبل ما شربوا
وظل شارهم بالشرب ظمآنا
لما تغني لهـــم حاديهـــم انخلعـــوا

عما بأيديهم حمداً وشكرانا

وأسلموا الدين والدنيا لطالبها

وطهروا القلب للمحبوب أوطانا

هذا اعتقادي فإن قصرت في عملٍ

فأسأل الله توفيقاً وغفرانا

فصل

ثم اعلم أنه لا يوصل إلى معرفة الله تعالى إلا بالعجز عن معرفته؛ لأن كل إشارة يشير بها الخلق إلى الحق سبحانه مردودة؛ لأنها من جنسهم مخلوقة مثلهم حتى يشير إلى الحق بالحق، ولا سبيل لهم إلى ذلك.

وأوحى الله إلى دواد عليه السلام: يا داود اعرفني واعرف نفسك. ففكر داود ساعة ثم قال: إلهي عرفتك بالفردانية والقدرة والبقاء، وعرفت نفسي بالضعف والعجز والفناء، فقال الله تعالى: يا داود الآن عرفتني حق المعرفة.

وقد سئل الصديق الأكبر أبو بكر -رضي الله عنه- بم عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي.

فقيل له: وهل يتأتى للبشر أن يدركه؟ فقال: العجز عن درك الإدراك إدراك.

ومعنى هذه الإشارة الصديقية أن الحواس الخمس التي هي آلات الإدراك لسائر المحسوسات لا وصول لها إلى إدراكه.

فإذا علمت أن الحق سبحانه وتعالى متره عن إدراك هذه الحواس لكُنْهِ ذاته وصفاته؛ لعجزها عن إدراكه، فقد عرفت الحق.

وقد سئل مصباح التوحيد ومفتاح التغريد علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- بم عرفت ربك؟ فقال: عرفته بما عرفني به نفسه لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب في بعده بعيد في قربه، فوق كل شيء، ولا يقال تحته شيء، أمام كل شيء، ولا يقال أمامه شيء، وهو في كل شيء، لا كشيء في شيء، فسبحان من هو هكذا، ولا هكذا غيره.

وقال علي رضي الله عنه مخبراً عن حقيقة التوحيد: ركضت الأرواح في ميادين المعرفة، فسبقت روح نبينا صلى الله عليه وسلم أرواح الأنبياء، فخلع عليها خلعة المعراج، فقيل له: وما غايتها، أي: المعرفة؟ فقال: الدهش في كبرياء الله عز وجل.

وسئل علي أيضاً -رضي الله عنه- هل عرفت الله بمحمد أو عرفت محمداً بالله؟ فأجاب: لو عرفت الله بمحمد ما عبدته، ولكان محمد أوثق في نفسي من الله، ولو عرفت محمداً بالله لما احتجت إلى رسول الله، ولكن الله عرفني نفسه بلا كيف كما شاء، وبعث محمداً صلى الله عليه وسلم بتبليغ أحكام القرآن، وبيان مفصلات الإسلام والإيمان، وإثبات الحجة، وتقويم الناس على منهج الإخلاص فصدقت بما جاء به.

فاعلم أنه يستحيل الوصول إلى معرفة شيء من معرفة الله بغير الله، ولا سبيل إلى معرفة الله، إلا بالله فإن الأفهام والأوهام والعقول والخواطر عاجزة قاصرة عن إدراك صورها وعللها، فكيف تطيق إدراك مصورها ومعيدها؟! وإنما الحق سبحانه خلق الخلق كما شاء، على ما شاء ووفق من شاء، لما شاء وعرف من شاء بما شاء.

وفي الحديث: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم رش عليهم نوراً، من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ذلك النور ضل**».

فمعرفة العبد لربه نور الله الذي يقذفه في قلب عبده فيدرك بذلك النور أسرار ملكه، ويشاهد غيب ملكوته، ويلاحظ صفات جبروته، ثم تنزل قوة إدراكه على مقدار ما أفيض عليه من ذلك النور، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ**﴾ [النور: ٣٥]، أي مثل نور المؤمن هكذا كان يقرأ أبي بن كعب وكان يقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما مثل نوره في قلب المؤمن.

وإنما سمى الحق سبحانه وتعالى نفسه نوراً لأن النور هو الضياء المظهر للأشياء، فإذا تسمى بما يظهر غيره بالإضافة إلى الإدراك نوراً، فلأن يسمى من يظهر الأشياء من كَتْم العدم إلى فضاء[1] الوجود بالإيجاد نوراً أولى بل هو نور النور مظهر المظهرات.

---

(١) فى المطبوع (قضاء) بالقاف بدل الفاء، والصحيح المثبت.

ثم ضرب مثل نوره في قلب المؤمن وشبهه، فشبه صدره بالمشكاة، وشبه معرفته بالمصباح في القنديل، وشبه القنديل الذي هو قلبه بالكوكب الدري، وشبه إمداده بمعرفته بالزيت الصافي الذي يمد به السراج في الإشعال.

ومعنىً آخر لطيف: المشكاة بمترلة بشريتك، والمصباح بمترلة نور توحيدك والزجاجة بمترلة قلبك.

وتشبيه المشكاة بالبشرية لما في البشرية من الكثافة، وهو محل الظل والسواد.

والمصباح كلما كان في الظل والسواد كان أشد في الاشتعال والإيقاد.

وتشبيه نور التوحيد بالمصباح لأن المصباح يستنير به ما يحاوره، ويحل فيه ونور التوحيد يستضاء به ما يجاوره ويحل فيه.

وشبه القلب بالزجاجة لما فيها من اللطافة، فإن شفافها يطرح أشعة الأنوار على ما يقابلها ويحاذيها من الأجرام.

والقلب شفاف تعبر منه أشعة أنوار التوحيد إلى ما وراءه من الجوارح، وإليه الإشارة النبوية في قوله لذلك الرجل الذي كان يعبث في صلاته: «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**».

وقيل فيه معنى آخر، وهو أنه مثل النور قلب النبي محمد ﷺ، فشبه عبد المطلب بالكوة، وهو المشكاة، وشبه عبد الله بالزجاجة، وشبه النبي ﷺ بالمصباح

كان في صلبهما فورث النبوة من إبراهيم عليه السلام، وهو قوله: ﴿**يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ**﴾ [النور: ٣٥]، وإنما سمي إبراهيم عليه السلام شجرة لأن أكثر الأنبياء من صلبه ﴿**لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ**﴾ [النور: ٣٥]، أي: لا يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين.

فصل

واعلم – وفقنا الله وإياك- أن لكل حق حقيقة، ولكل حقيقة أهل، ولكل أهل علامة، وبالعلامة يتبين المحق من المبطل، وكل من أجلسه الله على مائدة معرفته، وتناول من كئوس محبته رفع سيماها، وقال الله: ﴿**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال عليه السلام: «**من كانت سيرته حسنة أظهر الله عليه منها رداءً يُعْرَف به، ويُشْهَد عليه بالخير**».

وقال أبو اليزيد العارف: على لسانه وصف الربوبية، وعلى أركانه خدمة الديمومية، وعلى نفسه أثر العبودية، وفي قلبه هيبة الفردانية، وفي سره طرب الإلهية وفي روحة شُعَب الوحدانية.

وقالت رابعة: للعارف ثلاث علامات؛ بدنه مشغول بالطلب، وقلبه مشغول بالشغف، وروحه مشغولة بالطرب.

وقيل: قلب العارف منور بمصابيح المعرفة، ووجهه مزين بسيماء الطاعة وأطرافه ذائبة من خوف القطيعة، وسره منقطع إلى الله من كل علاقة وعلامة ذلك أن يكون خادماً بالأركان ذاكراً باللسان مستأنساً به في كل أوان، ويكون نفسه في الدنيا غريباً، وقلبه في صدره غريباً، وروحه في جسده غريباً، وسره في حاله غريباً، والغريب أبداً في غربته كئيب فلا يستريح العارف من غم الغربة ما لم يصل إلى الحبيب.

ومن هنا يظهر معنى قوله عليه السلام: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»،[1] فتأملت حقيقة هذا الحديث، فرأيت أن الأرواح خلقت قبل الأجساد بألفي عام ثم أفيضت من عالمها الروحاني النوراني، فأودعت ظلمة هذا الجسد الترابي الطبيعي الجثماني، والجسد مخلوق من التراب، والتراب كائن قبل كون الآدمي، فهما في الحقيقة جلبا غريبين غربا عن وطنهما، وأبعدا عن أصليهما فاجتمعا اجتماع غربة كل واحد منهما يشير إلى وطنه، ويطير إلى سكنه، فالجسد أخلد إلى الأرض، والروح بدون السمو لم يرض، ولله در القائل:

راحت مُشَرِّقةً ورحت مغرباً ... شتَّانَ بين مشرقٍ ومغربِ

ومن تأمل معنى هذه الأبيات فهم ما أشرنا إليه، وعلم ما عولنا عليه، فإن فيها معنى ازدواج الأشباح بالأرواح المستفاد من سر قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب «الرقاق» باب «قول النبي كن في الدنيا...».

كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، فمن كانت له بصيرة مستنيرة أبصر مصباح النجاح ومن كانت له أذن سامعة سمع منادي الفلاح:

ياخليلى قد بلغت القصدا ... وعرفت الغرام هزلاً وجدّا

خليانِي من ذكر سَلْع ونجْد ... ودعاني من حب سلمى وسُعْدَا

أنا لي في حشاشة القلب خودا ... أقسمت للعيون لا تتبدا

أبرزت للقلوب حلة حسن ... وتجلت لها بوجه مفدى

حجبوها فليس تظهر إلا ... لمحب صفا انتهاء ومبدًا

شهدت حين غيبت كل غيب ... فهي تخفى صونًا لها أن تحدًّا

ملكت في الشهود قبضاً وبسطا ... وحكت في الوجود جزراً ومدًّا

عرفوها مظاهراً فتغالت ... وتغالت فما يريد مردا

ذات أنس ووحشة ونفار ... وقرار ضد لضد تبدا

ركبت من تضادد فلهذا ... جمعت في المذاق صبراً وشهدا

فهي بدر وفي الحقيقة شمس ... وهي نار تريك حرا وبردا

وهي روح وفي المحبة راح ... جمعت في الكئوس غياً ورشدا

وهي ذات لكل ذات وتبغي ... بصفات صفت مراحاً ومغدا

وهي روح الوجود فرقاً وجمعاً ... وهي كون الأكوان وجدا وفقدا

هبطت من محل عز رفيع ... فتبدًّا لها فؤادي مهدا

فأتلفنـــا لفرقـــة وتـــلاقٍ بعده لا نخاف في القـرب بعـدا

وازدوجنا فـنحن زوج ولكـن إن تأملت كان ذا الزوج فـردا

نحن في شرعة الهوى قد خلقنـا نقطع الحب فيه وصـلا وصـدا

لو ترانا وقد هدت كـل عـين نتشاكى من الجـوى مـا تعـدا

هي تصغى فأشتكى مـا ألاقـي ثم أصغى فتشتكي لـيس تهـدى

وهي مني وكـل مـا بي منـها من صدود وكل ما قد تصـدى

وتراهـا إذا تـرنم حـادٍ برباها تـذوب شـوقاً ووجـدا

لا تلمهـا إذا بـدت بحـنين وأنـين يقـد للقلـب قـدا

فلـها معهـد قـديم وأنـس ليس ينسى وإن تطـاول عهـدا

ولهـا في المقـر مقعـد صـدق فيه ضم الوصال مـولىً وعبـدا

ثم اعلم أن الجسد والروح لما كانا غريبين دعيا مـن دار غربتـهما إلى دار قربتهما، ومحل وحشتهما إلى محل أنسهما، ومن ظلمة أنفسـهما إلى حضـرة قدسهما بتصريح ﴿**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ**﴾ [يونس: ٢٥]، ثم أعلمهمـا قرب المترل وسرعة المنقلب بتلويح ﴿**إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**﴾ [غافر: ٣٩] فاتفقا على قطع مفازة الغربة لما بينهما من النسبة ولقد أحسن القائل:

أجارتنا إنا غريبـان هـا هنـا وكل غريب للغريـب نسـيبُ

ثم اصطلحا على جمع زادٍ يقطعان به مسافة الطريق، ويصلان به إلى ذلك الفريق، فوجدا من مشقة مسافة الطريق ما أفضى بهما إلى التفريق والتمزيق وصبرا على ظمأ الهواجر حتى بلغت القلوب الحناجر، وصابرا على قيام الليل ومالا على أنفسهما كل الميل، فتارة يطرقهما من مكان الخوف طارق فتجرى الدموع السوابق، وتارة يبرق لهما من أفق الرجاء بارق فيستريح إليه العاشق وتارة يخفق لهما من عرف القبول خافق فيسكن القلب الخافق، فما زالا بين انتهاض ونشاط، وانقباض وانبساط حتى طويا البساط، ووافيا عقبى الموت التي لا يعلم منها إلى أين الانحطاط، فتهيأ الروح للفراق، وعزما على الانطلاق ﴿**إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ**﴾ [القيامة: ٣٠].

فقال له الجسد وهو في السياق: أيها الخليل أههنا يترك الخليل خليله؟! وقد حل بي ما لا يندفع بحيلة، وما كانت أيام الصحبة إلا قليلة، فقال: إنما أسبقك إلى المترل الأول، وعليه المعول، فأمهده بما معي من الزاد، وأهيئه بما أعددت من الصلاح والفساد ثم أعود إليك أيها الجسد فلا نفترق بعدها إلى الأبد، فتنطلق الروح مع داعي ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، ويعود الجسد إلى مترل ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾ [طه: ٥٥]، وقال قائلهم:

خلقت من التراب فصرت حيا ... وعلمت الفصيح من الخطاب

وعدت إلى التراب فصرت ميتا ... كأني ما برحت من التراب

خلقت من التراب بغير ذنب وأرجع بالذنوب إلى التراب

فإذا جاء بشير النشور ونفخ في الصور، تباشر أهل التوحيد بيوم الوعيد فهنالك يقال للروح: عد إلى جسدك المعهود، وهلمَّ إلى منهلك المورود، وظلك الممدود، ومقامك المحمود، وحبيبك المشهود، فتتلقى الروح للجسد لقاء الغائب لغائبه ويتعانقان تعانق المحبوب لأحبابه، ويتشاكيان ما لقيا من أوصابهما في مصابهما واكتسابهما في اقترابهما ثم يقال لهما: انطلقا إلى عَرْصَة المجمع ومحشر الخلائق أجمع فثمَّ عدل يخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، وما شاء بعبده يصنع.

فإذا قدم الأتراب من سفرة التراب نادى الحبيب بالأحباب: حدثوني ما حل بنفركم في سفركم يا معشر الغياب، فيقول لسان الحال في الجواب: قال صاحب الكتاب -ولم استعر في كتابي لغيري غير هذه الثلاثة أبيات، وبيتين مفردين قبلهما في هذا وقد علمت عليهما بقولي- فلله در القائل:

إذا حلت فيك المكاره وانتهت
إلى أن تراكَ العين صارت محامدا
وإن بلغت الصبابة جهداً
ودانت إلى رؤياك صارت فوائدا
وما سفرة أدنت إليك بعيدة
ولو أفنت الأيام من كان قاصدا

أيها الحزين علينا كيف وصلت إلينا؟ قال: ركبت جواد توكلي عليك واستياقي إليك، فما أنزلني إلا بين يديك. يا أيها الخائف من الفوت كيف

وجدت الموت؟ فقال: لما رأيت وصله مغايراً لصده، وقربه مناقضاً لبعده، فعرفت الشيء بضده، وفررت من دار قومٍ لا يأمنون إلى دار قوم لا يحزنهم الفزع الأكبر.

وأنت أيها الراجي كيف علمت أنك ناجي؟ فقال: ثقتي بفضلك أمنتني من عذابك؛ لأن كتاب الفضل سابق، وجواد الجود لاحق، فكيف لا أرجو أن أنجو وأنا برحمتك واثق؟!

ويا أيها الزاهد كيف عهدك بتلك المعاهد؟ فقال: سمعته يقول **﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾** [النحل: ٩٦]، فتركت ما عندي لما عنده ثم غمضت عيني عن الفاني فما فتحتها إلا على الباقي، ويا أيها المحب لنا كيف كان اتصالك بنا؟ فقال: هل كانت إلا شربة شربتها في حضرة «**يحبهم**»، فسكرت بها في حانة «**يحبونه**»، فما أفقت من ذلك المشروب إلا بمشاهدة المحبوب.

فأنت أيها الذاكر ماذا جرى لك؟ قال: غبت في لذة ذكره، فلما حضرت إذا أنا في حضرة المذكور.

فأنت أيها الفقير كيف وصلت وفي حضرتنا حصلت؟ قال: هتف بي هاتف **﴿وَاللَّهُ يَدْعُو﴾** [يونس: ٢٥] فاستغرقني لذة هذا الكلام، فما أفقت إلا في دار السلام بمنادي **﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾** [ق: ٣٤].

ويا أيها العارف كيف عرفت سبيل المعارف؟ قال سمعت منادي «**من أتاني يمشي أتيته هرولة**»[1] فأخذني شبه الوله فتنكرت للأغيار، وما سكنت إلى قرار وطلبت الجار قبل الدار، فمشيت إليه على أقدام صدق طلبي له، فما حللت عني إلا ﴿**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾ [القمر: ٥٥].

ويا أيها الصوفي صف لنا صفوة حالك في ارتحالك، فقال: دعوة دعيتها في سماع ﴿**أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ**﴾ [الأحقاف: ٣١]، فما استتممت قولي: «**لبيك**» حتى قال لي: ها أنا ناظر إليك ومتجلٍّ عليك.

ثم يقال: يا أهل التخلف ما هذا التوقف؟ اليوم يؤخذ بنواصي من عمل المعاصي، فقدموا ما قدمتم، وقولوا لنا بأي وجه قدمتم؟ فيرتفع الصياح ويكثر النواح ثم يقولون: لئن فاتنا رفيق الصلاح فما لنا عن باب رحمتك من براح ولا لنا غير حسن ظننا بك من سلاح، ولا لظلمة معاصينا غير نور عفوك من مصباح فيأتيهم الجواب من باب السلام: ﴿**لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣]:

يا قلب لا يودي بك الخفقان
رضِيَ الحبيب وواصل الغضبان
وَصَفَتْ أويقاتُ[2] السرور بوصلة
فعليك في حكم الهوى سكران

---

(١) سبق تخريج الحديث.

(٢) تصغير أوقات.

اليوم ينسخ بيننـــا مـــن بيننـــا
لا الصد نخشى لا ولا الهجران
تلك الصحائف بالعتاب قد انطوت
لمـــا محاهـــا العفـــو والغفران
فلربما ينبـــو الزنـــاد وربمـــــا
يكبـــو الجواد وتعثر الفرسان
لا يبعدنـــك عتبنـــا عن بابنـــا
فالعهـــد بـــاقٍ والوداد مصان
لا تكحلـــن بغير نـــور جمالنـــا
إنســـان عينـــك أيها الإنسان
فبلطفنا وبأنسنا وبوصلنـــــا
شاع الحديث وسارت الركبان
فإذا ذللت لعـــزنـــا ولهـــت
لهيبتك الملوك وهابك السلطان
فاخضع وذلّ لمن تحب فإنه
حكم الهوى أن تخضع الشجعان
يا أيها العشاق دونكم السباق
فهـــذه الشقـــراء والميـــدان

فصل

فاعلم أنه ثبت بما أشرت إليه من أحوال القوم وانتقالهم من هذه الـــدار إلى تلك الدار؛ إذ نحن ننتقل من أول خلقنا إلى أن يستقر بنا المترل في ستة أسفار.

السفر الأول: سفر السلامة من الطين.

السفر الثاني: سفر النطفة من الصلب إلى الرحم.

السفر الثالث: سفر الولد من الرحم إلى الدنيا.

السفر الرابع: سفر من الدنيا إلى القبر.

السفر الخامس: سفر من القبر إلى الموقف والعرض.

السفر السادس: سفر من الموقف إلى إحدى المترلين إما الجنـــة أو النـــار ثم يستقر بك فعلمت أنك في الدنيا عابر سبيل.

فأما أهل اليقظة فشمروا حين سمعوا: ﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَـــى دَارِ السَّـــلَامِ** ﴾ [يونس: ٢٥]، فهم في لذة ذلك السماع يشغلهم شوقهم، ويقلقهم ذوقهم عن التمتع بالدنيا وزينتها. همتهم في مطلوبهم، وراحتهم ذكر محبوبهم، فأبصـــارهم تتتره في ملكه، وبصائرهم تجول في ملكوته، وسرائرهم تحوم حول حمى جبروته لا يريدون إلا هو، ولا يطلبون إلا منه ولا يرضون إلا به، ولا يسمعون إلا عنه، ولا يشتاقون إلا إليه إن ذكروه ناجوا وإن شكروه باحوا، وإن وجدوه صاحوا، وإن شهدوه استراحوا، وإن سرحوا في حضرة قربه ساحوا.

فشهودهم له بلا حجاب، ووصالهم له بلا انقطاع، وسكرهم به بلا صحو قد استصحبت قلوبهم، ودارت أحزانهم بلذة خطابه الأول في يوم ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فصار ذلك كامناً في طوايا سرائرهم ومعاني صورهم، فإذا سمعوا مذكرا أو منشداً أو صائحاً أو نائحاً أو بائحاً استثار ذلك السر الكامن فيهم، فيذكرهم ذلك العهد الأول، فتارة يئنوا وتارة يحنوا.

فإذا غلبهم الوجد بغليانه وشربوا من موارد وارداته. فمنهم من طرقته طوارق الهيبة فخمد وذاب، ومنهم من برقت له بوارق اللطف، فتحرك وطاب ومنهم من طلعت له طوالع الحب من مطالع القرب، فسكر وغاب.

فإذا رجعوا من وجدهم إلى وجودهم ناقشهم لسان الحال على تلك الأحوال، فقيل للصائح: لم صحت؟ وللنائح: لم نحت؟ وللبائح: لم بحت؟ ولمن تمزق: لم مزقت؟ ولمن صفق: لم صفقت؟ ولم تحرك: إلى من تشوقت؟ فقال الصائح: كيف لا يصيح من قلبه فى قبضة منتهبه ثم لا يدرى ما يفعل به؟! وقال النائح: كيف لا ينوح من الموت فى طلبه وهو رهن منقلبه؟! فقال البائح: ليس من هو فى طربه كمن هو فى حربه أما أنا فأبوح بما أوليت من وجود موجدى على وجودى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. قيل له: فاضطرابك بنقر وقع الدف ونفخ الشبابة لماذا؟ قال: تذكرت بنقرة الدف ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، وبنفخة الشبابة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وبنفخة الحادى ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١]. قيل: فلم صفقت؟ قال:

إشارة إلى نيل المطلوب والتقاء المحب والمحبوب. قيل: فلم مزقت الأطمار؟[1] قال: إشارة إلى تمزيق الحجب، وظهور المحجوب، ورفع الأستار، وكشف الغيوب. قيل: فلم تحركت؟ قال سمعت داعى الحبيب يقول: «**هل من داع فأستجيب**»[2]، فقمت أسعى على رأسى وحق لمن دعاه مولاه أن يسعى على الرأس، وقلت:

ما فى التواجد إن حققت من حرجٍ
ولا التمايل إن أخلصت من باسِ
إن السماع صفاء نور صفوته
يخفى ويحجب عمن قلبه قاسى
نور لمن قلبه بالنور منشرح
نار لمن صدره ناووس وسواسِ
راح وكاساها الأرواح فهى على
قدر الكئوس تريك الصفو فى الكاسِ
حاد يذكرك العهد القديم وإن
تقادم العهد ما المشتاق كالناسى
فليس عار إذا غنى له طرباً
يئن بالباس لا يخشى من الناسِ

(١) الأطمار: جمع طِمْر -بكسر الميم- وهو الثوب الخَلَق.

(٢) أخرجه أحمد في المسند في كتاب «مسند الشاميين» باب «حديث عثمان بن أبي العاص».

فصل

واعلم أنه تحتم هاهنا ذكر السماع، وما هو منه محظور وما هو مباح، وما هو مستحب مستحسن، فإن كثيراً من المتعمقين والمتقشفين كرهوه، وأنكـروه أصلا وفرعاً، وحقيقةً وشرعاً، وهذا غلط منهم؛ لأن ذلك يفضـي إلى تخطئـة كثير من أولياء الله وتفسيق كثير من العلماء؛ إذ لا خلاف أنهم سمعـوا الغنـاء وتواجدوا وأفضى إلى الصرخ والغشية والضعف، فكيف ينسب إلـيهم نقـص وهم سالكون أتم الأحوال؟!

وإنما يحتاج ذلك إلى تفصيل ونظر في أهل السماع واختلاف طبقاتهم، فمن صح فهمه وحسن قصده، وصقلت الرياضة مرآة قلبه، وحلت نسمات العزيمة فضاء سره، وصفا من تصاعد أكدار أرض طبعه وبخار بشريته، وخيالات مقابلة وسواسه، وعرى عن حظوظ الشهوات، وتطهر عن دنس الشبهات، فلا نقول أن سماعه حرام وفعله ذلك خطأ.

قال أبو طالب المكيّ. فقد اطلعنا[1] على سبعين صديقاً. وسئل الشبلي عن السماع، فقال: ظاهره فتنة، وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة حل له السماع، وإلا فقد استدعى الفتنة، وتعرض للبلية.

ومعلوم أن السماع مهيج ما في القلوب محرك لما فيها، فلما كانت قلـوب القوم معمورة بذكر الله تعالى صافية من كدر الشهوات محترقة بحب الله سبحانه

(١) يعني كلهم يسمعون.

وتعالى ليس فيها سوى الله، فالشوق والهيجان والقلق والوجد والصيحان كامن فى قلوبهم ككمون النار فى الزناد، فلا يظهر إلا بمصادمة ما يشاكلها، فمراد القوم فيما يسمعونه إنما هو مصادف ما فى قلوبهم، فتستثيره بصدمة طروقه وقوة سلطانه، فتعجز القلوب عن الثبوت عند اصطلامه، فتنبعث الجوارح بالحركات والصرخات والصعقات لثورانها فى القلوب لا أنه يحدث فيها شيئاً.

قال أبو قاسم الجنيد: السماع لا يحدث فى القلب شيئاً، وإنما هو مهيج ما فيه فتراهم يهيجون من حيث وجدهم، وينطقون من حيث قصدهم يتواجدون من حيث كامنات سرائرهم لا من حيث قول الشاعر ومراد القائل، ولا يلتفتون إلى الألفاظ لأن الفهم سبق إلى ما يتخيله الذهن.

وشاهد ذلك ما حكى أن أبا سليمان سمع رجلاً يطوف، وينادى: يا سعتر[1] بَرِّى فسقط وغشى عليه، فلما أفاق قيل له فى ذلك، فقال: سمعته يقول: اسْعَ تَرَ بِرِّى ألا ترى أن وجده وحركته من حيث ما هو فيه من وقته ووجده، لا من حيث قول القائل ولا قصده.

وكما روى عن بعض الشيوخ أنه سمع قائلاً يقول: الخيار عشرة بحبة، قال: فما قيمة الأشرار بالمحترق بحب الله؟! لا تمنعه الألفاظ الكثيفة فهم المعاني اللطيفة ولم يكن واقفاً مع صوت نغمة ولا مشاهدة صورة.

---

(١) السعتر: نبتٌ، وبعضهم يكتبه بالصاد فى كتب الطب لئلا يلتبس بالشعير.

فمن ظن أن السماع يرجع إلى دف المغني وطيب النغمة، فهو بعيد من السماع، وإنما السماع حقيقة ربانية ولطيفة روحانية تسرى من السميع المستمع إلى الأسرار بلطائف التحف والأنوار، فتمحق من القلب ما لم يكن، وتبقى فيه ما لم يزل، فهو سماع حق بحق من حق، وأما الانزعاج الذي يلحق المتواجد فمن ضعف حالة عن تحمل الوارد؛ وذلك لازدحام أنوار اللطائف في دخول باب القلب، فيلحقه دهش فيغيب بجوارحه، ويستريح إلى الصعقة والصرخة والشهقة لغلبة وجده قهر وارده، وأكثر ما يكون ذلك لأهل البدايات، وأما أهل النهايات فالغالب عليهم السكون والثبوت لانشراح صدورهم، واتساع سرائرهم للوارد عليهم، فهم فى سكوهم متحركون، وفى ثبوهم متقلقلون.

كما قيل لأبي القاسم الجنيد ما لنا لا نراك تتحرك عند السماع؟ فقال: **﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾** [النمل: ٨٨] فقيل له: وما معنى السماع؟ وما بال الرجل يكون سكاناً قبل السماع، فإذا سمع اضطرب وتحرك؟ فقال: السماع تذكار خطاب الروح من الميثاق الأول حين قال ربنا سبحانه: **﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا﴾** [الأعراف: ١٧٢]، فسمع من سمع كلامه حين لا حدّ ولا رسم ولا صفة إلا المعنى الذى سمع، فبقيت حلاوة ذلك السماع فيهم، فلما أخرجهم وردَّهم إلى الدنيا ظهر ذلك فيهم، فإذا سمعوا نغمة طيبةً وقولاً حسناً طارت هممهم إلى ذلك الأصل فسمعوا من الأصل، وأشاروا إلى الأصل.

فالعارف هو الذى سمع من الله سبحانه وتعالى، ومن لا يعرف الله كيف يسمع من الله؟! ومن لا يسمع من الله سبحانه وتعالى فالبهيمة خير منه. قال الله عز وجل: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال أبو عثمان المغربى: من ادعى السماع، ولم يسمع من صوت الطيور وصرير الباب، وتصفيق الرياح، فهو مفترٍ مدعٍ، فالعارف يسمع ألطف الإشارات من أكثف العبارات.

ودخل يوماً أبو عثمان المغربى، وأخذ يسقى الماء من بئرٍ وعليه بَكْرَة[١] فتواجد فقيل له فى ذلك، فقال: إنها تقول الله الله.

وسمع على بن أبى طالب صوت ناقوس، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: سبحان الله حقاً حقاً إن المولى صمدٌ يبقى.

ومرّ الشبلى يوماً بفقّاعى[٢]، فسمعه يقول: ما بقى إلا واحد، فصاح وقال: وهل بقى إلا واحد!!

وقيل لبعض مشايخ الطريقة: لمن يصلح السماع؟ فقال: لمن لا يفرق بين صرير الباب والصوت الطيب، ولقد قلت فى ذلك المعنى:

---

(١) بكرة البئر: ما يستقى عليها – انظر «مختار الصحاح».

(٢) نسبة إلى بيع الفقّاع، وهو شراب ذو زبدٍ.

ما استماعى من ضاربات المغانى
بل سماعى من واردات المعانى
خلوتى خمرتى وسكرى صحوى
واســتماع منى بكل مكانِ
ليس فيما سمعت حرف وصوت
لا ولا نغمة بدت عن قيانِ
كل من كان فى استماع ووجد
واقفاً عند رنــة العيــدانِ
ذاك لا شك وجــده مستــعار
مستــرد على الحقيقة فانى
إنما الوجد فى الحقيقة وجـــد
غير مستخرج من الألحانِ
فسماع القلوب من كل معنىً
متجــلٍ بصفوة للجنـــانِ
فاستمع ما يقول مــر الليالى
واعتبر ما يشير صرف الزمانِ
وتصنت لصادحات الفــؤاد
والبوادى وشاهدات العيانِ
وتلمح تَرَ الحقيقــة تبــــدو
مـــن خفايــا الغيوب كالترجمانِ

تجد الكل إن تأملت فـــرداً

واحــــداً ليس فى الحقيقة ثــان

فلهذا صرفت وجهــى إليــه

مــا ثنانى عــن الطريــقة ثــانى

أنا لى مسمع إذا قلت ســرا

يـــا حبيبى يقول هــا أنا دانى

يا عــذولى فخلنى وبــلائى

وهـــوائى ولــو يكون هــوانى

لا تلمنى إذا ســكرت فحبى

قد سقانى من صرف صافى الدنان

قط ما رمت شربة لظمــائى

بكئوس الوصـــال إلا ســقانى

لا ولا جئت طالباً لحمـــاه

أحتمــى مــن جفــاه إلا حمانى

واعلم أنه قد حضر السماع وسمع وما قنع بالسماع حتى كشف القنــاع وتواجد، وتحرك كثير من الأكابر والمشايخ والتابعين -رحمهم الله- وسمع مــن الصحابة عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عمر، وكان عمر يرى إباحة السماع.

وسمع من الصحابة ابن الزبير، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية، وغيرهم.

وممن قال بإباحته من السلف: مالك بن أنس، وأهل الحجاز أجمع يبيحـون الغناء، وأما الحُدَاء[1] فأجمع الكل على إباحته، وكان ابن جـريج يـرخص فى السماع فقيل له: إذا أتى بك يوم القيامة ويأتى بحسناتك وسيئاتك، ففـى أى الجهتين سماعك؟ فقال: لا فى الحسنات ولا السيئات يعنى به فى المباحات.

وأما الشافعى -رحمه الله- فإنه لا يحرمه ويجعله فى العوام مكروها حتى لـو جعل الغناء له حرفة وصناعة فترد به شهادته، ويجعله مما يسقط المـروءة، ولا يلحقه بالمحرمات.

وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا إن كان فيها سماع.

وقال أبو يونس بن عبد الأعلى: سألت الشافعى -رحمه الله- عن إباحة أهل المدينة السماع، فقال: لا أعلم أحداً من علماء أهل الحجاز كره السماع إلا ما كان فى أوصافه، وأما الحداء وذكر الأطلال[2] والمرابع[3]، وتحسين الصـوت، وتلحين الأشعار، فلا أراه إلا مباحاً.

وكان أبو صروان القاضى عنده جوارٍ يُسْمِعْنَ التلحين قد أعدهن للصوفية. وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما، وكان أبو الحسن

---

(١) الحُدَاء: بضم الحاء المهملة وفتح الدال هو سوق الإبل والغناء لها..

(٢) الأطلال: جمع طَلَل، وهو ما شخص من آثار الديار -أى بقى منها وظهر.

(٣) المرابع: جمع مربع، وهو مترل القوم فى الربيع خاصة.

العسقلاني يسمع ويتوله في السماع، وصنف فيه كتاباً رد فيه على منكريه وكذلك جماعة صنفوا كتباً في الرد على منكريه.

وحكى عن بعض المشايخ أنه قال: رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقلت له: ما تقول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصفو الزلال الذي لا يثبت فيه إلا أقدام العلماء.

وحكى عن ممشاد الدينوري قال: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئاً؟ قال: لا، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن، فقلت: يا رسول الله إنهم يؤذونني وينشطون، فقال احتملهم يا أبا علي هم أصحابك، فكان ممشاد يفتخر بها، ويقول: كناني رسول الله ﷺ.

وروى طاهر بن بلبل الهمداني الوراق -وكان من أهل العلم والفضل- قال كنت معتكفاً في جامع جدة على البحر، فرأيت يوماً طائفة يقولون في جانب منه قولاً، ويسمعون، فأنكرت ذلك بقلبي، وقلت: في بيت من بيوت الله تعالى يقولون الشعر!! قال: فرأيت النبي ﷺ في تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جانبه أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- وهو يقول شيئاً من القول، والنبي يسمع منه ويضع يده على صدره كالواجد، فقلت في نفسي ما كان ينبغي أن أنكر على أولئك القوم الذين كانوا يسمعون، وهذا رسول الله ﷺ يسمع وإلى

جانبه أبو بكر يقول، فالتفت إلى النبى ﷺ، وقال: هذا حق بحق أو قال: حق من حق -شك الراوى فى ذلك.

وقد روى أبو طالب المكى فى كتابه بإسناده أن رجلاً دخل على النبى ﷺ وعنده قوم يقرءون القرآن، وقوم ينشدون الشعر، فقال: يا رسول الله قرآن وشعر؟! فقال: «**من هذا مرة ومن هذا مرة**».

وقد روى القشيرى فى رسالته عن جابر بن عبد الله الأنصارى عن عائشة - رضى الله عنها- أنها أنكحت ذات قرابتها من الأنصار، فجاء النبى ﷺ فقال أهديتم الفتاة، فقالت: نعم قال: فأرسلتِ من يغنى؟ قالت: لا، فقال عليه السلام: «**أن الأنصار فيهم غزل ولو أرسلتهم من يقول أتيناكم فحيانا وحياكم**».[1]

وروى أيضاً بإسناده أن رجلاً أنشد بين يدى النبى ﷺ فقال:

أقبلت فلاح لها ... عارضان كالسَّبَجِ[2]

أدبرت فقلت لها ... والفؤاد فى وَهَجِ

هل علىَّ ويحكما ... إن عشقت من حَرَجِ

فقال رسول الله ﷺ: لا حرج إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب «النكاح» باب «الغناء والدف».

(٢) السَّبج: الخرز الأسود.

وروى أن السماع إنما هو عبارة عن الأصوات الحسنة والنغمات المطربة يصدر عنها كلام موزون مفهوم، فالوصف الأعم فى السماع إنما هو الصوت الحسن والنغمة، وهو منقسم إلى قسمين: مفهوم كالأشعار، وغير مفهوم كأصوات الجمادات، وهى المزامير كالشبابة وغيرها من أصوات الطيور المطربة ولا قائل بتحريم الصوت الطيب المطرب من حيث هو صوت إلا ما جاء النص فى تحريم سماعه كالأوتار والملاهى.

وأما الصوت الطيب بالشعر الموزون المفهوم، فقد صحت الأخبار وتواترت الآثار بالأصوات الطيبة بين يدى رسول الله ﷺ، وكان يضع لحسان منبراً بالمسجد يقوم عليه ينافح[1] عن رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يؤيد حساناً بروح القدس ما نافح عن رسول الله ﷺ**».[2]

وقالت عائشة كان أصحاب رسول الله ﷺ يتناشدون الأشعار، وهو يتبسم ولما أنشده النابغة شعره، قال: لا يَفْضِضِ اللهُ فاك، وأُنْشِدَ رسول الله ﷺ مائة قافية من قول أمية بن أبى الصلت يقول فى كل ذلك: «**هِيْه هِيْه**» ثم قال: «**إنه كاد فى شعره ليسلم**».[3]

---

(١) أى: يدافع.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب «الأدب عن رسول الله» باب «ما جاء في إنشاد الشعر» بلفظ «ما يفاخر أو ينافح...».

(٣) أخرج أصله البخاري في صحيحه في كتاب «الأدب» باب «ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه».

وعن أنس بن مالك -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ كان يحدى له فى السفر، وأن أنجشه كان يحدو بالنساء، والبراء بن مالك يحدو بالرجال، فقال عليه السلام: «**يا أنجشة رويدك سوقاً بالقوارير**».

ولا يجوز أن يكون الصوت الطيب بالشعر الموزون والمعنى المفهوم حراماً؛ إذ الأصوات الطيبة غير منكرة ولا محدثة، وقد ثبت ذلك بالنص والقياس.

فصل

وأما الضرب بالدف والرقص فقد جاءت الرخص فى إباحته للفرح والسرور فى أيام الأعياد والعرس، وقدوم الغائب، والوليمة والعقيقة، وقد ثبت جواز ذلك بالنص، فمن ذلك إنشادهم وضربهم بالدف عند قدوم النبى ﷺ وقولهم:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

فأضفت إلى البيتين أبياتاً أخرى وهى:

قم فقد طاب سماعى ... أو فدعنى واستماعى
ما يطيب الوقت إلا ... لخليع كانخلاعى
أنا عبدٌ لحبيبٍ ... سره غير مذاعِ
أنا راضٍ فى هواه ... بهوانى واتضاعى
قم فهاتِ الراح صرفا ... واسقنيها لانتفاعى

قــد رضـعناها قــديما	قبــل أيــام الرَّضــا ع
عن يــدى ســاقى تجلــى	وهــو للعشــاق داعــى
ومغــنى الوقــت غــنى	لــك فى خــير البقــا ع
طلــع البــدر علينــا	مــن ثنيــات الــوداع
وجــب الشــكر علينــا	مــا دعــا لله داعِ

فأباح لهم ذلك لإظهار السرور بقدومه ﷺ.

ومن ذلك ما أخرجه البخارى ومسلم عن عروة عن عائشة -رضى الله عنها- أن أبا بكر -رضى الله عنه- دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منىً يدفّفان ويضربان، والنبى ﷺ متغش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه، وقال: «**دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد**».[1]

وفى حديث آخر قالت عائشة -رضى الله عنها- دخل على رسول الله ﷺ وعندى جاريتان يتغنيان بغناء بُعَاث، فاضطجع على الفراش وحوَّل وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرنى، وقال: مزمارة الشيطان عند رسول الله ﷺ، فأقبل عليه، وقال «**دعهما**»، فلما غفل غمزهما فخرجتا.

وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدَّرَق[2] والحراب، فإما سألت رسول الله ﷺ، وإما قال: أتشتهين تنظرين؟ فقلت: نعم، فأقامنى وراءه وخدى على

(١) أخرج أصل البخاري في صحيحه في كتاب «الجمعة» باب «إذا فاته العيد يصلي ركعتين وكذلك النساء...».
(٢) نوع من التُّرس.

خده، ويقول «**دونكم يا بنى أرفدة**» حتى إذا مللت قال: حسبك؟ قلت: نعم، قال: «**فاذهبى**».[1]

فهذه الأحاديث نص صريح فى الصحيح على أن الغناء واللعب بالدرق ليس بحرام، ويدل أيضاً على كثير من الرخص منها اللعب، وإباحة ذلك فى المسجد ووقوفه مع عائشة حتى ملت مع صغر سنها، وإنكاره على أبى بكر، ومنعه لـه من انتهار الجاريتين، وكان يقرع سمع رسول الله ﷺ صوت الدف وصوت الجاريتين فلو كان بموضع يضرب فيه الأوتار لما جوز الجلوس فيه.

وفيه دليل على أن صوت النساء أخف تحريما من صوت الأوتار والمزامير.

فأما صوت الشبابة فاستدل أهل التحريم بحديث نافع عن ابن عمر حين وضع أصبعه فى أذنيه، وقد سمع زمارة راعٍ فعدل عن الطريق، ولم يزل يقول: يا نافع أتسمع؟ حتى قال: لا، فأخرج أصبعيه من أذنيه، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع، فهذا ليس فيه دلالة على التحريم بل فيه دليل قوى على إباحة الشبابة بدليل أنه لم يأمر نافعاً بسد أذنيه، ولم ينكر على الراعى، وكذلك فعله ﷺ لا يدل على التحريم لأنه لم يأمر نافعاً بسد أذنيه، ولم ينكر على الراعى فى فعله، وحاشا رسول الله ﷺ أن يمر بمنكر ولم ينكره أو بباطل ولم يبطله، إذ لم يعرف الحلال والحرام إلا من جهته، ولو كان حراماً لأخبر به أصحابه.

---

(١) أخرجه البخاري أصله في صحيحه في كتاب «الجمعة» باب «الحراب والدّرق يوم العيد».

وأما سده أذنيه عليه السلام فيحتمل معنيين:

أحدهما: أنه سالك أتم الأحوال وأفضلها ونحن نقول: إن الأولى تركه فى أكثر الأحوال بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها.

الثانى: أنه عليه السلام قل ما يخلو قلبه من فكرٍ أو ذكرٍ وحالٍ مع الله تعالى واشتغاله به، فلعله كان فى حالةٍ تشغله زمارة الراعى عن هذه الحالة لتأثيرها فى القلب كما أنه خلع ثوب أبي جهم بعد الفراغ من الصلاة لأنه كان عليه السلام شغله عن حالته ووقته، فلا نقول إن ذلك يدل على تحريم أعلام الثوب بل إنه ليستشعر أنها شغلت قلبه فخلعه، فكذلك سد أذنيه.

وأما احتجاجهم بقول ابن مسعود رضى الله عنه: الغناء ينبت فى القلب النفاق كما ينبت الماء البقل، وبقول الفضيل: الغناء رقية الزناء، وبقوله عليه السلام: «**ما رفع أحد صوته بالغناء إلا بعث الله إليه شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك**»،[1] وقول عثمان: منذ أسلمت ما تغنيت، ولا تمنيت ولا لمست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله ﷺ.

وبقوله عليه السلام: «**كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى**»، وقول عائشة رضى الله عنها: إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها، وبقوله تعالى: ﴿ **أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ** ﴾ [النجم: ٥٩-٦٠]. قال ابن عباس: هو الغناء بلغة حمير.

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» بنحوٍ من هذا اللفظ.

فيلزم من ذا إذا قلنا بتحريمه أن يحرم الضحك أيضاً، وعدم البكاء قياساً ويحرم فى حديث عثمان مس الذكر باليمين قياساً أيضاً، ويلزم من هذه الأحاديث كلها إذا قلنا بإطلاق التحريم فيها أن يكون رسول الله ﷺ فعل حراماً أو أمر بحرام أو رضى حراماً، ومن ظن ذلك بنبيه فقد كفر.

وقد ثبتت النصوص بالغناء فى بيته، وضرب الدف فى حضرته، ورقص الحبوش فى مسجده، وإنشاد الشعر بالأصوات الطيبة بين يديه، فلا يجوز أن نقول بتحريم الغناء واستماعه وإباحته على الإطلاق.

بل يختلف ذلك باختلاف الأحوال، والأشخاص، وأرباب الرياء والإخلاص.

فنقول: إن السماع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

منها: ما هو حرام محض، وهو لأكثر الناس من الشباب، ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم، وملكهم حب الدنيا، وتكدرت بواطنهم، وفسدت مقاصدهم فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب عليهم وعلى قلوبهم من الصفات الذميمة سيما فى زماننا هذا وتكدُّر أحوالنا وفساد أعمالنا.

وقد روى الجنيد أنه ترك السماع فى آخر أمره، فقيل له: كنت تسمع أفلا تسمع؟ فقال: مع من؟ فقيل له: تسمع أنت لنفسك، فقال: ممن؟ فالسماع لا يحسن إلا بأهله، ومع أهله، ومن أهله، فإذا انعدم أهله واندرس محله، فيجب على العارف تركه.

والقسم الثانى منه: مباح، وهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح أو يتذكر غائباً أو ميتاً، فيثير حزنه فيروح بما يسمعه.

والقسم الثالث منه: مندوب، وهو لمن غلب عليه حب الله تعالى، والشوق إليه فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، ويضاعف الشوق إلى الله سبحانه واستدعاء الأحوال الشريفة والمقامات العلية، والكرامات السنية، والمواهب الإلهية.

ومجمل القول فى ذلك أن من سمع فظهرت عليه صفات نفسه وتذكر به حظوظ دنياه، فاستثار بسماعه وسواس هواه، فالسماع عليه حرام محض.

ومن سمع فظهر له ذكر ربه وخوفه من ذنبه، وذكر آخرته، فأتيح له ذلك الذكر شوقاً إلى الله تعالى وحبا فيه، ورجاءً لوعده، وخوفاً من وعيده، فسماعه ذكر من الأذكار مكتوب فى صحائف الأبرار.

ولقد أشرت إلى هذا المعنى فى هذه الأبيات:

إذا ما كنت مستمعاً لقول
فبالقلب استمع من قبل أذن
وألق السمع تشهد كل معنى
وتسمع فى شهودك كل فن
ومن يك وجده وجداً صحيحاً
فلم يحتج إلى قول المغنى

لـــه من ذاتـــه طرب قــــديم
وســـكر دائم من غير دن
فدعنى من تغزل قيس ليـــلى
ومن أبيات شعر جميل بثنى
فبى شـــغف عن الأشعار يلهى
وبى طرب عن الأوتار يغنى
وفى إيـــاى كل لطـــيف معنىً
فمنى إن سمعت سمعت عنى
ومـــا وجدى بمنقطـــع ولكن
بحيث يكون محبوبى تجدنى
فـــإن لم تـــدرك المعنى وتدرى
خفايـــا مـــا أقـــول فلا تلمنى
ومن حضر السماع بغير قلب
ولم يـــطرب فـــلا يلـــم المغنى
وإن تك يا عذول جهلت أمرى
فـــدع عنك الملام وخل عنى
أغـــنى باســـــم حبى لا أكنى
وإن أك قد كنيت فذاك أعنى
وراحى إن شـــربت فصفو ودى
وزادى إن قصدت فحسن ظنى
ولا أبغى النعيم ولـــست أرضى
نعيـــماً لا ولا جنـــات عدن

وما نفعي بدار لـــست فيـــــها
وأنت القصد يا أقصى التمني

فصل

واعلم أن القلوب أوعية، والآذان أوكية، والنغمات أشـــربة مرويـــة؛ لأن الأصوات جمال تحمل النغمات من الأغاني إلى الأواني، ولولا صفو الأواني مـــا راقت المعاني، ولولا صحة المعاني ما طابت الأواني، فإذا وصلت الأشـــربة إلى أوانيها فإذا كانت صافية صفته ولطفته، وإن كانت كدرة كثفته وخبثته، ولقد قلت هذه الأبيات:

ما حيلة الساقي إذا طاف على
ندمانـــــه بالخـــمرة المحللـــــة
فواحـــد قد زادهـــا بصفوه
صفـــوا وهـــذا ردها مخللــــــه
قلوبنـــــا أوعيـــة فكلمـــا
طاب الوعاء طاب ما قد حل له
قلب بذكر الله أضحى روضةً
وآخر باللهو صـــار مزبلــــــه
ما منبت الورد كمنبت غيره
ولا شذا المسك كريح البصلة
ولو سقى الحنظل شهدا دائماً
مـــا أنبت الحنظل إلا حنظله

واعلم أن الخلق كلهم أطفال فى حجر تربية الحق سبحانه يغذى كل واحد من خلقه على قدر احتمال معرفته.

فغذاء الرجال لا يصلح للأطفال، ومراكب الأبطال لا تصلح للبطـال، ألا ترى أن الطفل لما لم يطق تناول الخبز واللحم وأطعمته حاضنته، فوصـل إليـه بواسطة اللبن ولو أطعم ذلك مجرداً لمات، ومن ههنا يقال: من لا شيخ له لا قبلة له، ومن لا شيخ له فالشيطان شيخه.

وهذا أبو بكر الصديق -رضى الله عنه- لما كان طفلاً فى حجر تربية النبى ﷺ كان يلقمه مما كان يلقمه من لقم الغيب بواسطة قوله: «**ما صـب الله فى صدرى شيئاً إلا صببته فى صدر أبى بكر**»، فما أطاق تناول ذلك الغـذاء إلا بواسطة رسول الله ﷺ.

ومن هذه أيضاً قوله: «**أنا مدينة العلم وعلى بابها**»[1] لم يكن على يحتمـل ما تحتمله المدينة، وإنما كان بمنزلة الباب من المدينة، فلا يخرج من المدينة شـىء حتى يمر بالباب، ومن سر هذا الكشف كان على -كرم الله وجهه- يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا، معناه لو كشف غطاء المخلوقات حتى أشاهدها بعين البصر ما ازددت يقينا على ما شهدت به عين البصيرة مما ورثته من علـم الأولين والآخرين عن سيد الأولين والآخرين.

(١) رواه الترمذي في سننه بلفظ «أنا دار الحكمة وعلي بابها».

فما أراد كشف الغطاء إلا عن المخلوقات لا عن الخالق، فـإن الخـالق لا يوصف بذلك، فإذا كنت طفلاً فى حجر عاداتك محصوراً بقماط[1] مألوفاتك فلا تتطاول إلى تناول طعام الرجل، فإن طعام الأصحاء يضر بذوى الاعـتلال، وإشراق الشمس المنيرة يضر بذوى الأبصار الضعيفة، وقال رسول الله ﷺ: «**لا تودعوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم**»، فما كل قلب يصلح للسر، ولا كل صدف ينطبق على الدر، ولكل مقامٍ مقال، ولا كل ما يعلم يقال.

قال قائل لأبى يزيد: ما لنا لا نفهم كثيراً مما تقول؟ قال: لأن كلام الأخرس لا يفهمه إلا أبواه قلت:

وإذا كنت بالمدراك غِرًّا[2]
ثم أبصرت حاذقاً لا تمارى
وإذا لم تر الهلال فسلم
لأنـاس رأوه بالأبصـار

هذا ترجمان القرآن عبد الله بن عباس -رضى الله عنهما- يقول: إنى لأعلم فى قوله تعالى: ﴿**يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ**﴾ [الطلاق: ١٢] علمـاً لـو أبحـت بـه لكفرتمونى.

---

(١) القماط: ما تشد به قوائم الشاة عند الذبح، وكذلك ما يشد به الصبى فى المهد، وفى المعنى تشبيه واضح.

(٢) يقال: أدرك الغلام إذا بلغ، والغرّ: الرجل غير المجرِّب، والمعنى بذلك واضح.

وهذا أبو هريرة -رضى الله عنه- يقول: أخذت عن رسول الله ﷺ جرابين من العلم جراباً ألقيته إليكم، وجراباً لو أبديته لكم لرجمتمونى.

وهذا على بن أبى طالب يقول: إن بين جنبى علماً لو قلته لخضبتم هذه من هذه، ويقول أيضاً - رضي الله عنه - شعر:

إنى لأعـــلم علمـــاً لو أبوح به
لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستباح رجال مسلمون دمى
وكان أقبح ما يأتونه حسناً[1]

فأما أهل التمكين فإنهم علموا وكتموا ما علموا لما يعلمون مـــن ضـــعف احتمال عقول أطفال العقول؛ فلهذا أن الحلاج لما علم شيئاً من هذا العلم وتفوه به أبيح دمه، وكان خطؤه من حيث إظهاره ما يكتتم وإعلانه بما يسر، فكـــان حكم من باح أن دمه يباح.

وقد روى أنه لما أتى به ليصلب فرأى الخشب والمسامير، فضحك ضـــحكاً كثيراً ثم نظر فى الجماعة فرأى الشبلى فقال: يا أبا بكر أمعك سجادة؟ قال: بلى قال فافرشها لى، ففرشها، فتقدم وصلى، فقرأ فى الأولى الفاتحة، وبعدها **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾** [آل عمران: ١٨٥]، ثم ذكر أشياء، فكان ما حفظ عنه: اللهم بحق قيامك بحقى وبحق قيامى بحقك، وقيامى بحقك يخالف قيامك بحقى؛ لأن قيامى بحقك ناسوتية وقيامك بحقى لاهوتية مع أن ناسوتيتى غير مماثلة لها،

---

(١) ويروى: (يرون أقبح ما يأتونه حسنا).

أسألك أن توفقني لشكر هذه النعمة التي أنعمت بها علي حيث كشفت لي عن مطالع وجهك، وحرمت على غيري ما أبحت لي من النظر في مكنونات سرك، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك، وتقرباً إليك فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت، فلك الحمد فيما تفعل ولك الحمد فيما تريد.

ثم تقدم أبو الحارث السياف ولطمه لطمة هشم وجهه وأنفه، فصاح الشبلي ومزق جبته وغشي عليه، وعلى أبي الحسن الواسطي، وجماعة من المشايخ المشهورين.

وقال عبد الكريم بن عبد الواحد: دخلت على الحسين بن منصور في مسجد وحوله جماعة، فكان أول ما قاله في كلامه: لو يلقى مما في بطني ذرة على جبال لذابت، وإني لو كنت يوم القيامة في النار لأحرقت النار، ولو كانت في الجنة لهدمتها.

ودخل يوماً إلى جامع المنصور ببغداد، وقال: يا أيها الناس اجتمعوا واستمعوا مني حديثاً، فاجتمع عليه خلق كثير منهم محب ومنكر، فقال: اعلموا أن الله قد أباح لكم دمي فاقتلوني، فبكى القوم، فتقدم إليه عبد الودود بن سعد الزاهد، وقال يا شيخ كيف نقتل رجلاً يصلي ويصوم ويقرأ القرآن، فقال: يا شيخ المعنى الذي يحقن الدماء خارج عن الصلاة والصوم وقراءة القرآن، فاقتلوني تؤجروا، وأستريح فتكونوا أنتم مجاهدين، وأنا شهيد، ثم ذهب فتبعته إلى داره، وقلت: يا شيخ ما معنى هذا؟ قال يا بني ليس للمسلمين شغل أهم من قتلي،

فاعلم أن قتلى قيام بالحدود ووقوف مع الشريعة، فإن من جاوز الحدود أقيمت عليه الحدود، وفى معنى ذلك أقول:

أباح دمـــى إذ باح قلبى بحبها
وحل لها فى حكمها ما استجلت
وما كنت ممن يظهر السر إنمـــا
عروس هواها فى ضميرى تجلت
وشاهدتها فاستغرقتنى فكـــرة
فغبت بها عن كل كلى وجملتى
وحلت محل الكل منى بكلـــها
فإيـــاى إيـــاها إذا مـــا تبدت
وألقت على ســـرى أشعة نورها
فـــلاح لجلاســـى خفايا طويتى
ونمت على سرى فكانت هى التى
عليـــها بها بين البريـــــة نمت
إذا سألت من أنت قلت لها أنـــا
وأنتِ التى أفنيت فـــيك هويتى
أنا الحق فى عشقى كما أن سيدى
هـــو الحق فى حسن بغير معية
فإن أك من سكرى شطحت فإننى
حكمت بتمزيق الفؤاد المفتت

فـــلا غرو أن أصليت نـــار تحرقى
ونـــار الهوى للعاشقين أعدت
ومـــن عجبى أن الذيـــن أحبـــهم
وقد علقت أيدى الهوى بأعنقى
سقونى وقالوا لا تغنى ولـــو ســـقوا
جبال حنـــين ما سقونى لغنت
تمنت سليمى أن أموت صبابـــــة
وأهـــون شىء عندنا ما تمنت

فنادى لسان حاله: يا حلاج كيف رأيت المحبة؟ قال: رأيت حبة قد نصبت على فخ جمالية المحبوب، فطارت إليها عصافير القلوب، فلما سقطوا ليلتقطـــوا انقلبت عليهم حبة الفخ فاختبطوا، فحدقوا إلى حقيقة تلك الحبة، فإذا هى نقطة باء المحبة قد قلبتها الفتنة، فانقلبت المحبة محنة يا حلاج، فأنت تحت رقه تحتـــرق وبحبل عشقه تختنق، فمتى تتفرغ من الخنق حتى تقول: أنا الحق، فلو كان لك فى البقائية ما شربت كأس الأنية، فقال: يا قوم لما أخذنى منى وسلبنى عنى تلاشت أوصاف حَدَثِى لما ظهر سلطان قِدَمِه، فكان الحدث كأن لم يكن، وبقى القدم كأن لم يزل، ثم فنيت أنيتى فى أنيته، وذهبت هـــويتى فى هويتـــه، وتلاشـــت ناسوتيتى فى لاهوتيته، ثم نظرت منه إليه فلم أر إلا هو، وسمعت منه عنه فلـــم أسمع إلا هو ونطقت له به فعلمت أن ليس هو إلا هو، فقلت: أنا هو، ولـــئن قلت: أنا الحق، فما عدلت عن الحق، لأنى أنا الحق فى محبته، وهـــو الحـــق فى

مملكته، ولئن كان سكرى نَمَّ على سرى، فقد عربد وجدى على وجـــودى، وجعل حدى محو حدودى وقلت:

اقتلـــونى يـــا ســـقاتى	أن فى قتلـــى حيـــاتى
فممـــاتى فىحيـــاتى	وحيـــاتى فى ممـــاتى
أنـــا عنـــدى محـــو ذاتـــى	مـــن أجـــلِّ المكرمـــات
وبقـــائى فى صـــفاتى	مـــن قبـــيح الســـيئات
ســـئمت نفســـى حيـــاتى	فى الرســـوم الفانيـــات
فـــاقتلونى واحرقـــونى	بعظـــامى الباليـــات
ثم مـــروا برفـــاتى	فى القبـــور الدارســـات
تجـــدوا ســـر حبـــيبى	فى طوايـــا الباقيـــات

ياحلاج أنت شربت بين ندمان لا يحتملون عربدتك، وقد صنعنا لك دعوة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، ففارق ووافق فثم ندمان يتنازعون فيهـــا كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم، وسقاهم ربهم شراباً طهوراً سماعهم ﴿**إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا**﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]. مشاهدتهم ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ(٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

فقتلـــوه وصـــلبوه	وما قتلـــوه ومـــا صـــلبوه
ولكـــن غـــار عليـــه	أحبابـــه فغيبـــوه
هيهـــات مـــا قتلـــوه	كـــلا ولا صـــلبوه

لكنهم حين غاروا عن وجده شبهوه
سقوه صرفا وراموا كتمان ما أودعوه
فما أطاق ثبوتا لثقل ما حملوه
فتاه سكراً ونادى أنا الذى تعرفوه
يا لائمى كيف أخفى فى الحب ما أظهروه
أم كيف يكتم قلب بالشوق قد مزقوه

فصل

واعلم أن الأجساد تنمو بنماء الأقوات، كذلك الأحوال تصفو بصفاء الأوقات، فقوت جسدك ما عودته من الطيبات، وقوت روحك ما ربيته من أقوات الطاعات فى أوقات الخلوات، وكلما صفت حكت ما فيها من جوهر المعانى، فإذا كانت عين نظرتك منطمسة ومنابع فكرتك مندمسة، ومعالم علومك مندرسة، وأعلام عزيمتك منتكسة، وخيول همتك عن اللحاق بالقوم محتبسة، فما بالك والتطاول إلى منازل قوم عيون قلوبهم بالحكم منبجسة وسرائرهم لأنوار معارفهم من جذوة الغيب مقتبسة؟! فلا تدع ما ليس فيك، ولا تتمدغ بفيك بما ليس فيك، فحسبك ما يعلمه الله فيك ويكفيك.

فينبغى لك أن تقف موقف الأصاغر وتتأدب بآداب الأكابر.

هذا موسى كليم الله ﷺ لما كان طفلا فى حجر تربية الحق سبحانه ما تجاوز حده، ولا تعدى قصده، بل قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] فلما كبر وترعرع وبلغ مبلغ الرجال، ما رضى بطعام الأطفال، بل قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فكان غاية طلبه فى طفولية بدايته طعام وشراب، وكان منتهى أَرَبِه[1] فى رجوليته نهايته رفع الحجاب ومشاهدة الأحباب.

فإذا تأدبت بهذه الآداب تيسرت لك الأسباب، وفتحت لك الأبواب، وإذا وجدت من وجد ما لم تكن واجدا، وشهدت ما لم تكن مشاهداً، ورأيت من ورد ما لم يكن وارداً، وسمعت بأرباب الأحوال والوارد، فلا تكن لآيات ربك جاحداً، ولا فى تأويلها لاحدًا، واسأل من أعطاهم أن يعطيك، فإن مولاك ومولاهم واحد، وقد أشرت فى هذه الأبيات إلى ما يهدى كل قاصد:

أهدى إلى الشذا من عرفه خبرا
فهمت بالسر لما أن إلى سرى
وطبت بين أصيحابى وما علموا
ما قد جرى من حديث العشق كيف جرى
تعجب الناس من سكرى ولو شربوا
بكأس شربى لما لاموا لمن سكرا

(١) الإِرْب، والأَرَب –بكسر وسكون، وبفتحتين– بمعنى الحاجة.

في خمرة العشق معنىً لـــيس يعرفــه
إلا فتى مـــزق الأطـــمـــار واشـــتهـــرا
عندى رموز كنوز لـــيس يدركـــها
من أمـــــة العـــشق إلا من قـــرا ودرى
فاشرب بكأس صفاءٍ قد شـــربت بها
وانـــظر تـــرى علم الـــعرفان قد ظهرا
دع من سعى ودعا أو حج معتـــمرا
ومـــن أتى البيت والأركـــان والحجرا
ولُـــذْ بحانـــة ذكرى واجتلى قدحى
فى صفـــو حالى ودع من لام أو عذرا
طف حول كعبة قلبى إن عزمت على
وصل الحبيب ودع من صد أو هجرا
قد أوجب الحب حجى والوقوف على
عرفات معرفتى إن كـــنت مقـــتدرا
فامـــح العلوم ولا تبقى الرســـوم ولا
تـــنظر لإيـــاك لا عينـــا ولا أثـــرا
وغب عن الاســـم تـــشهد عند غيبته
ذاك المسمى فمنك السمع والبصرا
هناك تشهد أهـــل العـــشق كلـــهم
فى حومة الحب فى حكم الهوى أسرى

فيا أيها الغائب عن حضرة الحبائب لو طلبت ما طلبوا وجدت ما وجـــدوا وإن وردت ما وردوا شهدت ما شهدوا.

فالباب مفتوح للطلاب لا حاجب عليه ولا بواب، وإنما المحجوب عن السبب من وقف مع الأسباب، وعلى قدر الخطاب رد الجواب، فالمشروب حاضر والمحروم من حرم الشراب، والمحبوب ناظر، والمطرود من وقف من وراء الحجاب.

فمن أنس بمن سواه فهو مستوحش منه، ومن ذكر غيره فهو غافل عنه، ومن عول على سواه فهو مشرك به، فإذا لم تجد إليه سبيلا ولا فى ظله مقيلاً ثم رأيت من أولاه الله جميلاً وأعطاه جزيلاً واتخذه صفياً أو خليلاً، فألقى عليه من أسرار معرفته قولاً ثقيلاً، وباح بما لم يقم لك عليه دليلاً **﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾** [الإسراء: ٣٦] فأحسن الناس من أسلم وأسلمهم من سلم، وأحبهم إلى الله من استسلم ذلك **﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾** [الإسراء: ٣٥].

ولقد أنصف أبو حامد الغزال -رحمه الله- حيث أجرى ذكر هذه الطائفة من الرجال فى كتابه المنعوت بـ «**إحياء علوم الدين**»، فقال عند ذكرهم: هؤلاء قوم غلبت عليهم الأحوال حتى قال الواحد: سبحانى، وقال الآخر: ما أعظم شأنى وقال الآخر: أنا الله، وقال الآخر: ما فى الجبة إلا الله، فهؤلاء قوى سكارى ومجالس السكارى تطوى ولا تحكى -ومعناه تسلم إليهم أحوالهم ولا ترد عليهم أقوالهم- لأن كلامهم نطق عن ذوق، وذوق عن شوق، فمن ذاق عرف، ومن لم يذق لا حرج عليه إذا سلم واعترف.

فصل

واعلم أن طائفة ممن عدموا العقل وخالفوا النقل عدلوا عن الحق وصدوه وعمدوا إلى هذا الباب فسدوه، وقالوا بإبطال كرامات الأولياء ومكاشفات الأصفياء كالمعتزلة باعتزالهم ومن وافقهم على ضلالهم،[1] وقالوا: لا تكون هذه الكرامات والمعجزات إلا للأنبياء عليهم السلام، ومن ادعى ذلك سواهم فهو محال، ويكذبهم فيما أنكروه وجحدوه العقل والنقل.

فأما العقل فمن وجهين:

أحدهما: أنه لا معنى للكرامة إلا ما يكشفه الله تعالى لعبده ويطلعه عليه من حقائق الأشياء، وهذا من مقدور الله تعالى داخل تحت مشيئته، فيجب وصف الله تعالى به وبالقدرة على إيجاده، فكيف يستحيل وجوده مع قدرة الله تعالى عليه.

وكما أنه لا معنى للنبى إلا أنه عبد اختصه واطلعه على غيبة وكاشفه بحقائق الأشياء.

كذلك الولى عبد كاشفه الله تعالى بما شاء من غيبه **﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾** [المائدة: ٥٤]، وهو فى حق النبى معجزة، وفى

(١) وممن وافق المعتزلة على هذا القول الشنيع بعض الوهابية الذين أصبحوا لا يؤمنون إلا بما كان من قبيل الحسّ شأنهم فى ذلك شأن العلمانية أيضاً فى هذا العصر، وإنكارهم لكرامات الأولياء إحياناً يكون استكباراً، وأحياناً يكون لأنهم لم يعرفوا ولم يذوقوا ولم يكاشفوا ....

حق الولى كرامة ثم إنها ملحقة بمعجزات نبية منسوبة إليه؛ لأن الكرامة لا تظهر إلا على من صدق فى إيمانه وإسلامه، وإيمانه وإسلامه مستفاد من ذلك النبى ومن بركته، فكلما ظهر على هذا الولى كرامة كانت ملحقة بمعجزة نبيه، ولا يكون فى رتبة النبوة.

والفرق بين المعجزة والكرامة.

أن المعجزة يدعيها النبى لنفسه ويستدعيها متى أراد.[1]

والكرامة لا يدعيها الولى لنفسه ولا هى بحكمه بحيث لا يستدعيها متى أراد بل تارة تظهر اختياراً، وتارة تظهر عليه اضطراراً، وتارة لا تظهر.

وليس من شرط الولى أن تكون له كرامة، ولا يؤثّر ذلك فى ولايته.

ولا كذلك النبى فإنه يجب أن يكون له معجزة لأن الرسل والأنبياء عليهم السلام بعثوا حجة على الناس يدعوهم إلى الله تعالى، فلابد لهم من المعجزة لإقامة البرهان.

وقد سئل أبو يزيد -رحمة الله عليه- عن هذه المسألة، فقال: مثل ما حصل لسائر الأنبياء عليهم السلام كمثل زق فيه عسل يترشح منه قطرة، فمثل قطرةٍ مثل

(١) والغرض من استدعائها هو التحدى ليبرهن بذلك على صحة ما جاء به، وعلى صحة نبوته أو رسالته، وذلك كعصا سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أخرجها فإذا هى تأكل ما يأفكون، وأخرجها فشقّ بها البحر فانفلق فصار كل فرقٍ كالطود العظيم.

ما حصل لنبينا محمد ﷺ، ثم الخلائق مفتقرون إلى ظهور معجزة النبى لأنه مبعوث إليهم ليصدقوه، وأما الولى فلا يفتقر إلى ذلك ولا يبالى صدقوه أو كذبوه.

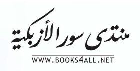
وقد اختلف أهل العلم فى الولى هل من شرطه أن يعلم أنه ولى، فكان الإمام أبو بكر بن فورك يقول: لا يجوز أن يعلم أنه ولى لأن ذلك يسلبه الخوف ويوجب له الأمن.

وأما الذى يؤثره أهل التحقيق وهو الحق أنه يجوز، وليس بواجبٍ أن كل ولىٍّ تكون له كرامة فى حقه إذا أطلعه الله على ما وهبه وكشف له ما كان حجبه.

ومن قال: إن ذلك يسلبه الخوف، فهذا ضعيف لأن من كان بالله أعرف كان من الله أخوف، فمن عرفه الله نفسه اشتدت مهابته وتعظيمه لله سبحانه، وتلك الهيبة من معروفه تزيد على أضعاف من مخافات الخائفين.

ومن شرط الولى، وإن علم نفسه أنه ولى أن يستصحب الخوف ولا يفارقه ولا يسكن إلى تلك الكرامات، ولا يلاحظها، ولا يساكنها بقلبه مخافة أن يكون ذلك استدراجاً، فهو فى سائر حالاته يكون خائفاً راجياً.

قال السرى السقطى -رحمة الله عليه- لو أن رجلاً دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة على كل شجرة طائر يقول له بلسانٍ فصيح: السلام عليك يا ولى الله، فلو لم يخف أنه مكر فممكور به.



وأما الوجه الثانى من العقل فهو عجائب مما يراه النائم من عجائب الرؤيا الصادقة والكشوفات الخارقة؛ وذلك بمشاهدة روحه للملكوتيات الغيبيات ثم يظهر صدق ذلك فى اليقظة.

ولا معنى للرؤية إلا ركوز الحواس وخمودها، وخنوسها عن الإحساس، وعدم اشتغالها بالمحسوسات.

فكأن الولى إذا قمع نفسه عن الشهوات ضعفت قوى الحواس حتى صارت كالمعدومة؛ لأنها هى التى تشغل عن الاطلاع للملكوتيات المغيبة لأن الروح من هناك أفيضت، وفى هذه الهياكل حبست، فإذا ضعفت القوى النفسانية الجثمانية قويت القوى الروحاينة النورانية، فتصفو الروح وتتلطف النفس بالرياضات فيشاهد فى اليقظة ما تشاهده أنت فى يومك عند خمود إحساسك، وكم من مستيقظ لا يبصر من يحاذيه، ولا يسمع من يناديه ﴿**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف: ١٩٨].

فإن قال قائل: هل يجوز أن يكون الولى معصوما أم لا؟ فنقول: لا يجب أن يكون معصوماً لأن العصمة للأنبياء عليهم السلام، وأما الأولياء رضى الله عنهم فجائز أن تبدو منهم الهفوات والزلات، وإنما من الجائز أن يكون محفوظاً من الإصرار على الأوزار، ولا يمتنع أن تبدو منه زلة.

وقد سئل الجنيد عن العارف هل يزنى؟ فأطرق مليا ثم رفع رأسه وقال ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا**﴾ [الأحزاب: ٣٨].

واعلم أن أجل الكرامات التي تكون للأولياء عليهم السلام التوفيق للطاعات والعصمة عن المعاصى والمخالفات.

وأما ما يدل على الكرامة من النقل، فكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أما الكتاب ما أظهره الله تعالى من الكرامة فى قصة مريم عليها السلام، وليست بنبى فى قصتها مع زكريا فى قوله تعالى: **﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً﴾** [آل عمران: ٣٧] فهذه كرامة ظاهرة، وكذلك قصتها فى النخلة **﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾** [مريم: ٢٥]، وكذلك قصة أهل الكهف وما ظهر من عجائب كلام الكلب، ومن قصة الخضر عليه السلام، وليس بنبى مع موسى عليه السلام، وما فيها من الكرامات، ومن ذلك قصة صاحب سليمان عليه السلام الذى أتاه بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه، وما خصه الله به مما لا يدخل تحت قدرة سليمان عليه السلام.

وأما الأخبار فى ذلك، فمنها ما ورد فى الصحيح من حديث جريج الراهب قال رسول الله ﷺ: «**لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم، وصبى جريج وصبى آخر، فأما عيسى فقد عرفتموه، وأما جريج فكان عابداً فى بنى إسرائيل وكانت له أم فكان يوماً يصلى إذا اشتاقت إليه أمه، فقالت: يا جريج، فقال: يا رب الصلاة خير أم إجابتها؟ ثم صلى، ودعته، فقال: مثل ذلك، وصلى، ودعته فقال: مثل ذلك فاشتد على أمه، فقالت: اللهم لا تمته حتى يفتتن بالمومسات، وكانت امرأة زانية فى بنى إسرائيل، فقالت لهم: أنا**

أفتن لكم جريجاً حتى يرانى، فلم تقدر منه على شيء، وكان راعٍ يأوى بالليل إلى صومعته، فلما أعياها راودت الراعى عن نفسها فأتاها فحبلت وولدت ثم أنها قالت: ولدى هذا من جريج، فأتاه بنو اسرائيل فكسروا صومعته وشتموه، ثم صلى ودعا، ثم نخس الغلام. قال أبو هريرة -وهو الراوى- فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ حين قال بيده: «**يا غلام من أبوك؟ فقال: الراعى، فندموا على ما كان منهم فاعتذروا إليه، فقالوا: نبنى صومعتك من ذهب أو قال: من فضة، فأبى فبناها كما كانت، وأما الصبى الآخر فإن امرأة كان معها صبى ترضعه إذ مر بها شاب جميل ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ولدى مثل هذا الصبى، فقال الصبى: اللهم لا تجعلنى مثله** قال أبو هريرة: كأنى أنظر إلى النبى ﷺ حين كان يحكى للغلام وهو يرضع **ثم مرت بها امرأة ذكروا أنها سرقت وزنت وعوقبت، فقالت: اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه، فقال الغلام: اللهم اجعلنى مثلها، فقالت أمه له فى ذلك، فقال: إن الشاب جبار من الجبابرة، وإن هذه قيل: إنها زنت، ولم تزن، وقيل: سرقت، ولم تسرق، وهى تقول حسبى الله**»،[١] وهذا حديث صحيح.

ومن ذلك حديث الغار، وهو صحيح، قال رسول الله ﷺ: «**انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فأواهم المبيت إلى غارٍ، فدخلوا فانحطت عليهم صخرة**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب «الإجارة» باب «من استأجر أجيراً فترك الأجير أجره فعمل فيه».

من الجبال، فسدت الغار، فقالوا: إنه والله لا ينجيكم من هذه إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم إنه كان لى أبوان كبيران وكنت لا أعقهما ولا أعز عنهما مالا ولا ولداً، فباتا فى ظل شجرة يوماً وأنا أروح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فجئتهما بــه، فوجــدهما نــائمين فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً، فقمت والقدح فى يدى انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجــت انفرجاً لا يستطيعون الخروج منها.

فقال رسول الله ﷺ: «وقال الآخر اللهم كانت لى ابنة عم، وكانت أحب الناس إلى فراودتها عن نفسها، فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من الســنين وأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها، فقالت: لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحــذرت مــن الوقوع عليها فانصرفت وهى أحب الناس إلى، وتركــت الــذهب الــذى أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيــه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

قال رسول الله ﷺ: «وقال الثالث اللهم إنى استأجرت أجراء فأعطيتــهم أجورهم غير رجل منهم ترك الأجرة التى له وذهب، فثمرت أجرتــه حــتى كثرت منها الأموال، فجاءنى بعد حين فقال: يا عبــد الله أدِّ إلى أجرتــى،

فقلت: له كل ما ترى من أجرتك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بى فقلت: أنا لا استهزئ بك، فخذ ذلك كله، فاستاقه فلم يترك منه شيئاً. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة وخرجوا من الغار يمشون»، وهذا حديث حسن متفق على صحته.

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ: قال: «**بينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت البقرة، وقالت: إنى لم أخلق لهذا، وإنما خلقت للحرث، فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم!! فقال رسول الله ﷺ: آمنت بهذا، وآمن أبو بكر وعمر**»،[1] وهذا حديث صحيح.

ومن ذلك ما روى أن عمر رضى الله عنه كان فى سفر من الأسفار فلقى جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع، فطرد السبع عن طريقهم حين نزل إليه وأمسك بأذنيه، وقال: «إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه، فلو لم يخف غير الله لما سلط الله عليه شيئاً»،[2] وهذا خبر مشهور.

ومن ذلك الحديث الصحيح: «**إن من أمتى مخاطبون ومكلمون، فإن يك فأنت منهم يا عمر**».[3]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده في كتاب «باقي مسند المكثرين» باب «مسند أبي هريرة».

(٢) قلت: والسبب فى تسليط ما يخافه الإنسان عليه أن الجزاء من جنس العمل، فلما خاف غير الله كان الجزاء أن يسلط عليه.

(٣) رواه الإمام البخاري بلفظ: «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يك من أمتي أحد فإنه عمر».

ومن ذلك قصة سارية وهو يناديه على منبره: يا سارية الجبل -وسارية حينئذ فى نهاوند فى قتال أعداء الله- وأسمعه الله صوته.

ومن ذلك ما روى أن رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمى فى غزاة فحال بينهم وبين المواضع قطعة من البحر، فدعا الله تعالى باسمه الأعظم فمشوا على الماء.

ومن ذلك الحديث الصحيح: «**رب أشعث أغبر ذى طِمْرَين لا يعبأ به لو أقسم على الله لأبره**»[1].

وهذه الأخبار حذفنا أسانيدها لشهرتها وصحتها والاستقصاء على ما جاء منها، وصح من كرامات الأولياء وعجائب أحوالهم وغرائب مواهبهم ما يؤدى إلى الإكثار والإضجار، وليس هو القصد ها هنا.

وإنما القصد إقامة الدليل على صحة كراماتهم ووجود مكاشفاتهم إرغاماً للجاحدين وإبطالاً لقول اللاحدين، وكيف يمكن إنكار ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله تعالى**»،[2] وقال الله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ [الحجر: ٧٥] قال أهل التفسير: أى المتفرسين.

---

(١) أخرجه الترمذي بلفظ: «وكم من أشعث... لا يؤبه له.....».

(٢) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب «تفسير القرآن عن رسول الله» باب «ومن سورة الحجر».

وقد صح عن عثمان -رضى الله عنه- أنه دخل عليه إنسان، وقد نظر إلى امرأة فى السوق، فقال: يدخل على أحدكم وآثار الزنا فى عينيه، فقال: أوحى بعد رسول الله ﷺ؟! قال: لا، ولكن للمؤمن فراسة صادقة.

فلا ينكر ذلك إلا طاعن فى كتاب الله وسنة رسوله وعلى المكاشفين من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

فصل

واعلم أن هذه الأوصاف الشريفة لا تكون إلا لمن صفت أوصافه، وصفت أحواله، وخلصت أعماله، وصدقت أقواله، وقصرت آماله، وقام بما عليه، وترك ماله ولا يتشوق إلى ذلك، ولا يستدعيه، ولا يتعاطاه ولا يدعيه، ولا يظهر من الخير ما ليس فيه، ولا يكتم من حاله ما الله مبديه، فإن المعانى لا تثبت بالدعاوى، والأمانى لا تنال بالتوانى، وإنما المعانى تحصل بالتقوى والصبر على البلوى والتوكل على الله فى السر والنجوى، فمن اتقى ارتقى، وإلا هبط فى مهاوى الشقا.

وأما من ظهر من جهال الطريق، وبرز بالعدول عن التحقيق، وتقشف بقشف أهل التجريد والتمزيق، حتى أوقعوا عقول العامة فى الحرج والضيق وهم بأهوائهم فى مكان سحيق، فأولئك هم والله الأسوءون حالاً الأخسرون أعمالاً **﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾** [الكهف: ١٠٤].

ولقد سئلت عن الفقير الصادق وما صفته، فقلت: أيها المرائـــى باللبـــاس المساوى بين الحق والباطل بالالتباس، أتظن أن التكحل كالكحل فى القياس أو تعتقد أن من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان كمن بنى بلا أساس، تباً لقوم صرفتهم النفوس عن المنفوس، وقلبهم المحسوس إلى الرأى المعكوس، ورضوا من الفقر بحلق الرؤوس وترقيع الملبوس، واقتصروا من العبادة على حمل السجادة ومن الزهادة على تخشين الوسادة.[1]

أقروا بالتوبة، وأصروا على الحوبة، وحملوا السبحة للمدحة، ولبسوا الطاقية للتقية، واعتمدوا على العكاز ليقال إنه فاز، وسبحوا ليمدحوا، وذكروا ليذكروا وصلوا ليوصلوا، وصاموا ليصانوا، اجتمعوا للبدعة، واستمعوا للسمعة، وخشعوا للرفعة، فتطوعهم للطمع لا للورع، وتخشعهم للرئاسة لا للسياسة إن صـــحبوا ملوا وإن وُهِبُوا غلوا، وإن حوقلوا قلوا، وإن نوقشوا ذلوا.

إن أعطوا كتموا، وإن مُنِعوا شتموا، وإن أخذوا المال لحق حقه قالوا: تمتعنا برزقه، وإن صالوا على أحد من خلقه، قالوا: صولة بحقه.

اعتقدوا أن الريبة مثبتة، واعتمدوا على أن الغيبة طيبة، إن جادلوا بغير علم قالوا فتحاً، وإن خرجوا عن الشريعة قالوا شطحاً.

فوالذى أذل الملوك وأعز العبد المملوك وهيأ السالك للسلوك لا يقبل فقرك إن لم تكن تركن إليه، ولا يرفع قدرك إن لم تضع لديه، ولا تفيد دلوقك حـــتى

(١) وهذا كما قيل: لبست مرقعاً صوفاً وقلتَ *** أنا الصوفىُّ ليس كما زعمتَ

تلوح فى أفق التوفيق بروقك، ولا تسمع دعواك حتى تقدم بينة معناك، ولا تقبل طواقيك مع وجود بواقيك، ولا ينتفع بتسبيحك مع وجود تقبيحك، ولا يقوم تجريدك بتبديدك، ولا تزهيدك بتقييدك، ولا تمزيقك بتزويقك، وعار عليك أن تمزق الخرق قبل أن تمزق الحرق.

لكن ظلمة نفسك تحجب شمس قدسك، ومألوف حسك يوحشك من حضرة أنسك، ودخان خيالك يسود وجه جلالك، وعواصف فخرك تنسف جبال فقرك.

تأكل أكل البهائم، وتشرب شرب الهيم، وتتخلق بالخلق الذميم، وليس هذا هو الأمر القويم ولا الطريق المستقيم.

وإنما المراد من المريد صدق الطلب وحسن الأدب، وحسن التربية ولو لبس الأقبية، والقيام بالأوامر ولو أنه أمير آمر، وتمزيق النفوس قبل تمزيق الملبوس، وتصفية القلوب قبل تنقية الجيوب، والشروع فى الشريعة قبل الشروع فى الشيعة والتحقيق فى الحقيقة قبل الجواز فى الطريقة، فإنه لا ينال الثواب بترقيع الأثواب ولا يرتفع الحجاب لمن يخطر فى ثياب الإعجاب، ولا يجلس على موائد الأحباب من لم يذق لباب أولى الألباب، ولا يُسْلَك طريق الإيجاب إلا لمن أجاب، ولا يثبت المقام إلا لمن استقام، ولا يصح الحال لمدعى محال، ولا يرتقى إلى ذلك الفناء إلا بترك العادة، ولا يعرف المعروف إلا بترك المألوف، ولا يعرف التفرقة والجمع إلا من علم حقيقة الشرع، ولا تنال الكرامة إلا من قال للكرى مه، ولا تظهر الكشوف لمن أعماله زيوف، ولا تصدق الفراسة لمن طلب الرياسة، ولا يختص بالحضور من ارتكب المحظور، ولا يصح الوجد والموجود إلا لمن جاد بالموجود.

كيف ينسخ الضياء بالضياء؟! كيف يغنى السراب عن الشـــراب؟! كيـــف يعرف ذوق الشراب من قلبه خراب؟! كيف يصل إلى الأعتاب من هو إلى الآن ماتاب؟! كيف تقبل توبة الكذاب وهو من خوف العذاب ما ذاب؟! كيـــف يفتح الباب لمن هو غائب ما آب؟! كيف يسمع الخطاب من هو من الخبث ما طاب؟! كيف يشاهد الأحباب من هو محسوب فى الغياب؟!

وقلت فى معنى ذلك:

بالذوق والشوق نالوا عزة الشرف
ولا بالدلوق ولا بالعجب والصلف
ومذهب القـــوم أخـــلاق مطهرة
بها تخلقت الأجـــســـاد فى النطق
صـــبر وشـــكر وإيثـــار ومخصمة
وأنفـــس تتقطع الأنفاس باللهف
والزهد فى كل فانٍ لا بقـــاء لـــه
كما مضت سنة الأخيار والسلف
قوم لتصفية الأرواح قد عـــمدوا
وسلمـــوا عرض الأشباح للتلف
لا بالتخلف فى المعروف تعـــرفهم
ولا التكلف فى شىء من الكلف
ما ضرهم رث أطمار ولا خلف
كالـــدر ما ضـــره مخلوق الصدف

وا شَقْوتى إذ تولت أمة سلفت
حتى تخلفـــت فى خلـــف من الخلف
ينمقون مزاويـــر الغرور لـــنـــا
بالزور والـــبهت والبـــهتان والحلف
ليس التصوف عكازا ومسبحـــة
كلا ولا الـــفقر رؤيـــا دلقك الترف
وإن تروح وتغـــدو فى مرقعـــة
وتحتـــهـــا موبقـــات الكبر والسرف
وتظهر الزهد فى الدنيا وأنت على
عكوفها كعكوف الـــكلب فى الجيف
الفقر ســـر وعـــنك النفس تحجبه
فارفع حجابك تجلو ظلمـــه الـــسرف
وفارق الحسن وافن النفس فى نَفَسٍ
وغب عن الحسن واجلب دمعة الأسف
واخضـــع له وتذلل إن دعيت لـــه
واعـــرف محلك مَنْ إيـــاك واعترف
وقف على عرفـــات الذل منكسرا
وحـــول كـــعبة عرفان الصفا فطف
وادخل إلى خـــلوة الأفكار مبتكرا
وعـــد إلى حانة الأذكار كالصحف
واتل المثانى وكرر إن عزمت على
وصل الحبيب وصف ماشئت واتصف

وإن سقاك مدير الراح من يده
كأس التجلى فخذ بالطاس واغترف
فاشرب وغنى ولا تمنع لذى ظمأ
فــإن رجعت بــلا رى فوا أسفى

وقد أضفت إلى الأبيات أبياتاً قلتهن فى معنى لك أختم بهن الكتـــاب، والله الموفق للصواب.

ذهب الرجال وحال دون مجالهم
زمـــر من الأوبـــاش والأنـــدال
زعـــموا بأنهـــم على آثـــارهم
ســـاروا ولكـــن ســـيرة البطال
لبسوا الدلوق مرقعاً وتقـــشفوا
كتقـــشف الأقـــطاب والأبدال
قطعوا طريق السالكين وأظلموا
ســـبل الهـــدى بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التـــقى
وحشوا بواطنهـــم من الأدغال
إن قلت قال الله قال رســـولـــه
همـــزوك همز المنـــتهى المتغال
ويقول قلبى قال لى عن سره
عن سر سرى عن صفا أحوالى
عن حضرتى عن فكرتى عن خلوتى
عن جلوتى عن شاهـــدى عن حالى

عن صفو وقتى عن حقيقة حكمتى
عن ذات ذاتى عن صفـــات فعالى
دعـــوى إذا حققـــتها ألـــفيتـــها
ألـــقـــاب زور نمقـــت بمحـــال
تركوا الشرائع والحقائق واقـــتدوا
بطرائق الجـــهال والضـــــــلال
جعلوا المراء فتحا وأنـــواعِ الخطا
شطحاً وصالـــوا صولـــة الإدلال
وترصدوا أكل الحـــرام تخادعـــا
كتـــخادع المتلصـــص المحـــــتال
فهناك طاب المخلصون وأصبحوا
مـــتســـترين بصورة الأشـــكال
فهموا خواص الله حيث تيممـــوا
والـــذاكـــرون الله فى الآصـــال
والقـــانتين المخـــبتين لـــربهـــم
والنـــاطقين بأصـــدق الأقـــوال
التاركين حظوظهم ونفوســـهم
المـــؤثرين بخالـــــص الأمـــوال
ما شأنهم فى شأنهم دعـــوى ولا
عـــملوا لقـــصد مرا ولا لجدال
عملوا بما علموا وجادوا بالذى
وجدوا وما بخلوا بفضل نـــوال

يمشون بين الناس هوناً كلما
صد الجهول بَدَوْه بالإجمال
فإذا بدا ليل سمعت أنينهم
وحنينهم بتضرع وسؤال
وعيونهم تجرى بفيض دموعهم
مثل انهمال الوابل الهطال
متفاوتين بقربهم وبحبهم
كتفاوت العمال فى الأعمال
فى الليل رهبان لخدمة ربهم
ووجودهم فى الجود كالأبطال
تاهوا على كل الملوك وإنهم
هم الملوك بعزة الإقبال
فلرب أشعث حقرته دلوقه
ولدى المليك هو العزيز الغالى
بوجوههم أثر السجود لربهم
وبها أشعة نوره المتلالى
خمص البطون لما بهم من فاقة
شعث الرؤوس لروعة الأهوال
لم تخل أرض منهم قد حكموا
ذات اليمين بها وذات شمال
سوى لهم بين الثريا والثرى
والفرش والعرش الرفيع العالى

لا ينظرون إلى سوى محبوبهم
شغلوا به عن سائر الأشغال
فبهم إليك وسيلتى يا سيدى
ألا وصلت حباهم بحبال؟
وا خيبة الآمال إن أقصيتنى
عن قصدهم وا خيبة الآمال

تمَّ الكتاب على أحسن حال
وصلى الله على سيدنا محمدٍ
وصحبه وسلم.

أمراء للبيع [1]

قال الشيخ تاج الدين محمد بن على الملقب طوبر الليل، أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة:

كان شيخنا الإمام العظيم شيخ الإسلام تقى الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد لا يخاطب السلطان إلا بقوله: «يا إنسان»! فما يخشاه ولا يتعبد له ولا ينحله ألقاب الجبروت والعظمة، ولا يزينه بالنفاق، ولا يداجيه كما يصنع غيره من العلماء، وكان هذا عجباً، غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن يخاطب أحد قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينه «يا إنسان»، فما يعلو بالسلطان والأمراء، ولا يترل بالضعفاء والمساكين، ولا يرى أحسن ما فى هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الإنسانية!.

ثم كان لا يعظم فى الخطاب إلا أئمة الفقهاء، فإذا خاطب منهم أحداً قال له: «يا فقيه»، على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين بن الرفعة ثم يختص علاء الدين بن الباجى وحده بقوله: «يا إمام»: إذ كان آية من آيات الله فى صناعة الحجة، لا يكاد يقطعه أحد فى المناظرة والمباحثة، فهو كالبرهان إجلاله إجلال الحق؛ لأن فيه المعنى وتثبيت المعنى.

---

(١) هذا العنوان وما يليه غير موجود بمخطوط دار الكتب المصرية، وإنما هو موجود ببعض الطبعات، فرأيت الإبقاء عليه لما فيه من فوائد حسنة.

وقلت له يوماً: يا سيدى، أراك تخاطب السلطان بخطاب العامة، فإن علوت قلت: «يا إنسان»، وإن نزلت قلت: يا إنسان، أفلا يسخطه هذا منك، وقد تذوق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع، وخصه النفاق بكلمات هى ظل الكلمات التى يوصف الله بها، ثم جعله الملك إنساناً بذاته فى وجود ذاته، حتى أصبح من غيره كالجبل والحصاة يستويان فى العنصر ويتباينان فى القدر، وأقله مهما قلَّ هو أكثرها مهما عظمت، ووجوده شىء ووجودها شىء آخر.

فتبسم الشيخ وقال: يا ولدى، أيش هذا؟ إننا نفوس لا ألفاظ، والكلمة من قائلها هى بمعناها فى نفسه لا بمعناها فى نفسها، فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يرده الشرع عليه، ولو نافق الدين لبطل أن يكون ديناً، ولو نافق العالم الدينى لكان كل منافق أشرف منه، فلطخة فى الثوب الأبيض ليست كلطخة فى الثوب الأسود، والمنافق رجل مغطىً فى حياته، ولكن عالم الدين رجل مكشوف فى حياته لا مغطى، فهو للهداية لا للتلبيس، وفيه معانى النور لا معانى الظلمة، وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل، فإذا نافق فقد كذب، والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين، فإذا نافق فقد كذب وغش وخان.

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتداد لعمل النبوة فى الناس دهراً بعد دهر، ينطقون بكلمتها، ويقومون بحجتها،ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور تحويه فى نفسها، وتلقيه على غيرها، فهى أداة لإظهاره وإظهار جماله معاً.

أتدرى يا ولدى ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء كلهم آخذ من نور واحد لا يختلف؟ إن أولئك فى أخلاقهم كاللوح من البلور يظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية، وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير!.

وعالم السوء يفكر فى كتب الشريعة وحدها، فيسهل عليه أن يتأول ويحتال ويغير ويبدل ويظهر ويخفى، ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة فى صاحب الشريعة، فهو معه فى كل حالة يسأله ماذا تفعل؟ وماذا تقول؟

والرجل الدينى لا تتحول أخلاقه، ولا تتفاوت، ولا يجىء كل يوم من حوادث اليوم، فهو بأخلاقه كلها، لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها، ولن تراه مع ذوى السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا الذى لو نطقت أفعاله لقالت لله بلسانه: هم يعطوننى الدراهم والدنانير، فأين دراهمك أنت ودنانيرك؟.

إن الدينار يا ولدى إذا كان صحيحاً فى أحد وجهيه دون الآخر، أو فى بعضه دون بعضه، فهو زائف كله، وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم، فيترلون بذلك مترلة البهائم تقدِّم أعمالها لتأخذ لبطونها، والبطن الآكل فى العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله.

فإذا رأيت لعلماء السوء وقاراً فهو البلادة، أو رقة فسمِّها الضعف، أو محاسنةً فقل: إنها النفاق، أو سكوتاً عن الظلم، فتلك رشوة يأكلون بها!.

قال الإمام: وما رأيت مثل شيخي سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام فلقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شيئاً تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة، فلا يبالى هلك فيه أو عاش، إذ هو فى الدم كالقلب، لا تناله يد صاحبه ولا يد غيره، ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترفٍ ولا نعيم، فكان تجرده من أوهام القوة لا تغلب، وانتزع خوف الدنيا من قلبه، فعمرته الروح السماوية التي تخيف كل شيء ولا تخاف، وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل فى طباع الناس، حتى قال الملك الظاهر بيبرس، وقد رأى كثرة الخلق فى جنازته حين مرت تحت القلعة: الآن استقر أمرى فى الملك، فلو أن هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج على لانتزع منى المملكة.

وكان سلطانه فى دمشق الصالح إسماعيل، فاستنجد بالإفرنج على الملك نجم الدين أيوب سلطان مصر، فغضب الشيخ وأسقط اسم الصالح من الخطبة وخرج مهاجراً، فأتبعه بعض خواصه يتلطف به، ويقول له: ما بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وأكثر مما كنت عليه إلا أن تنخشع للسلطان وتقبل يده، فقال له الشيخ: يا مسكين! أنا لا أرضى أن تقبل السلطان يدى! أنتم فى وادٍ وأنا فى وادٍ!.

ثم قدم إلى مصر فى سنة (٦٣٩)هـ، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب، وتحفى به، وولاه خطابة مصر وقضاءها، وكان أيوب ملكاً شديد البأس، لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا مجيباً، ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء، وقد جمع مع

المماليك الترك ما لم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم، وهم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر، فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويظهر ملكه وسطوته، والأمراء يقبلون الأرض بين يديه، فناداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا الملأ العظيم يا أيوب! ثم أمره بإبطال منكر انتهى إلى علمه فى حانة تباع فيها الخمر، فرسم السلطان لوقته بإبطال الحانة واعتذر إليه.

فحدثنى الباجى قال: سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر فقلت: يا سيدى، كيف كانت الحال؟.

قال: يا بنى، رأيته فى تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره، فكان ما بدأته به.

قلت: أما خفته؟

قال: يا بنى، استحضرت هيبة الله تعالى، فكان السلطان أمامى كالقط، ولو أن حاجة من الدنيا فى نفسى لرأيتُه الدنيا كلها بيد أنى نظرت بالآخرة، فامتدت عينى فيه إلى غير المنظور للناس، فلا عظمة ولا سلطان، ولا بقاء ولا دنيا، بل هو لا شىء فى صورة شىء.

نحن يا ولدى مع هؤلاء كالمعنى يصحح معنًى آخر، فإذا أمرناهم فالذى يأمرهم فينا هو الشرع لا الإنسان، وهم قوم يرون لأنفسهم الحق فى إسكات الكلمة الصحيحة أو طمسها أو تحريفها، فما بد أن يقابلوا من العلماء

والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق فى إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها فإذا كان ذلك فههنا المعنى بإزاء المعنى، فلا خوف ولا مبالاة، ولا شأن للحياة والموت.

وإنما الشر كل الشر أن يتقدم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها، فيكون باطلاً مزوراً فى صورة الحق، وههنا تكون الذات مع الذات. فيخشع الضعف أمام القوة، ويذل الفقر بين يدى الغنى، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على نفسها، فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة حاولت أن تقارع السيف.

كلا يا ولدى إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دقت فيها المسامير، وإذا انفتق الثوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط الذى فيها إذا هى لم تخزّه؟.

إن العالم الحق كالمسمار إذا أُوْجِدَ المسمار لذاته دون عمله كفرت به كل خشبة.

قال الإمام تقى الدين: وطغى الأمراء من المماليك وثقلت وطأهم على الناس، وحيثما وجدت القوة المسلطة المستبدة جعلت طغيانها واستبدادها أدبا وشريعة، إلا أن تقدم بإزائها قوة معنوية أقوى منها، ففكر شيخنا فى هؤلاء الأمراء، وقال: إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد؛ إذ يحسبون كل حسن منها هو الحسن، وإن كان قبيحاً فى ذاته ولا أقبح منه، ويرون كل قبيح عندها هو القبيح وإن كان حسناً ولا أحسن منه.

وقال: ما معنى الإمارة والأمراء؟ وإنما قوة الكل الكبير هى عماد الفرد الكبير، فلكل جزء من هذا الكل حقه وعمله، وكان ينبغى أن تكون هذه الإمارة أعمالاً نافعة قد كبرت وعظمت فاستحقت هذا اللقب بطبيعةٍ فيها كطبيعة أن العشرة أكثر من الواحد، لا أهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها فى الضعفاء بطبيعة كطبيعة أن الوحش مفترس.

وفكر الشيخ فهداه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء مماليك، فحكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق.

بلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم، ثم احتدم الأمر، وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضى ابن عبد السلام.

وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة، وأنه لا يصح لهم شيئاً من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعى!.

ثم جعلوا يتسببون إلى رضاه، ويتحملون عليه بالشفاعات، وهو مصر لا يعبأ بجلالة أخطارهم، ولا يخشى اتسامه بعدواتهم، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فأرسل إليه، فلم يتحول عن رأيه وحكمه.

واستشنع السلطان فعله وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعينه، وقبح عمله وسياسته وما تطاول إليه،وهو رجل ليس له إلا نفسه وما تكاد تصل يده إلى ما يقيمه، وهم وافرون وفى أيديهم القوة ولهم الأمر والنهى.

وانتهى ذلك إلى الشيخ الإمام فغضب و لم يبال بالسلطان، ولا كبر عليه إعراضه، وأزمع الهجرة من مصر، فاكترى حميراً أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج إلى الشام، فلم يبعد إلا قليلاً نحو نصف بريد حتى طار الخبر فى القاهرة ففزع الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبى، وصار فيهم العلماء والصلحاء والتجار والمحترفون كأن خروجه خروج نبى من بين المؤمنين به، واستعلنت قوة الشرع فى مظهرها الحاكم الآمر من هذه الجماهير، فقيل للسلطان: إن ذهب هذا الرجل ذهب ملكك.

فارتاع السلطان فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضاه ويستدفع به غضب الأمة، وأطلق له أن يأمر بما شاء وقد أيقن أنه ليس رجل الدينار والدرهم، والعيش والجاه، ولبس طيلسان العلماء كما يلصق الريش على حجر فى صورة الطائر.

ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجمع الأمراء وينادى عليهم للمساومة فى بيعهم، وضرب لذلك أجلاً بعد أن يكون الأمر قد تعالمه كل القاهرة ليتهيأ من يتهيأ للشراء والسوم فى هذا الرقيق الغالى.

وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة، فبعث إلى الشيخ يلاطفه ويسترضيه، فلم يعبأ الشيخ به فهاج هائجه، وقال: كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادى علينا وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا من الناس ويبتذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض؟ وما الذى يفقد هذا الشيخ من الدنيا فيدرك ما نحن فيه، أنه يفقد ما لا يملك ويفقد غير الموجود، فلا جرم لا يبالى ولا يرجع عن رأيه ما دام هذا

الرأى لا يمر فى منافعه ولا فى شهواته، ولا فى أطماعه كالذين نراهم من علماء الدنيا، أما والله لأضربنه بسيفى هذا فما يموت رأيه وهو حى.

ثم ركب النائب فى عسكره وجاء إلى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى ما رأى فانقلب إلى أبيه، وقال له: أُنْج بنفسك، إنه الموت، وإنه السيف وإنه وإنه.

فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير بل قال له: يا ولدى أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله.

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت، فليس فيه الإنسانى بل الإلهى، ونظر إلى نائب السلطنة وفى يده السيف، فانطلقت أشعة عينيه فى أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها.

وتناوله بروح قوية فاضطرب الرجل وتزلزل، وكأنما تكسر من أعصابه فهو يرعد ولا يستقر ولا يهدأ.

وأخذ النائب يبكى، ويسأل الشيخ أن يدعو له، ثم قال: يا سيدى ما تصنع بنا؟ قال الشيخ: أنادى عليكم وأبيعكم.

- وفيما تصرف ثمننا؟.

- فى مصالح المسلمين.

- ومن يقبضه ؟

- أنا.

وكان الشرع هو الذى يقول: «أنا»، فتم للشيخ ما أراد، ونـــادى علـــى الأمراء واحداً واحداً، واشتط فى ثمنهم لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه.

ودُمِغَ الظلم والنفاق والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التى أعلنها الشرع: أمراء للبيع..... أمراء للبيع.....!!.

تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه

مكتب الروضة الشريفة

للأبحاث الشرعية وتحقيق التراث والتصحيح

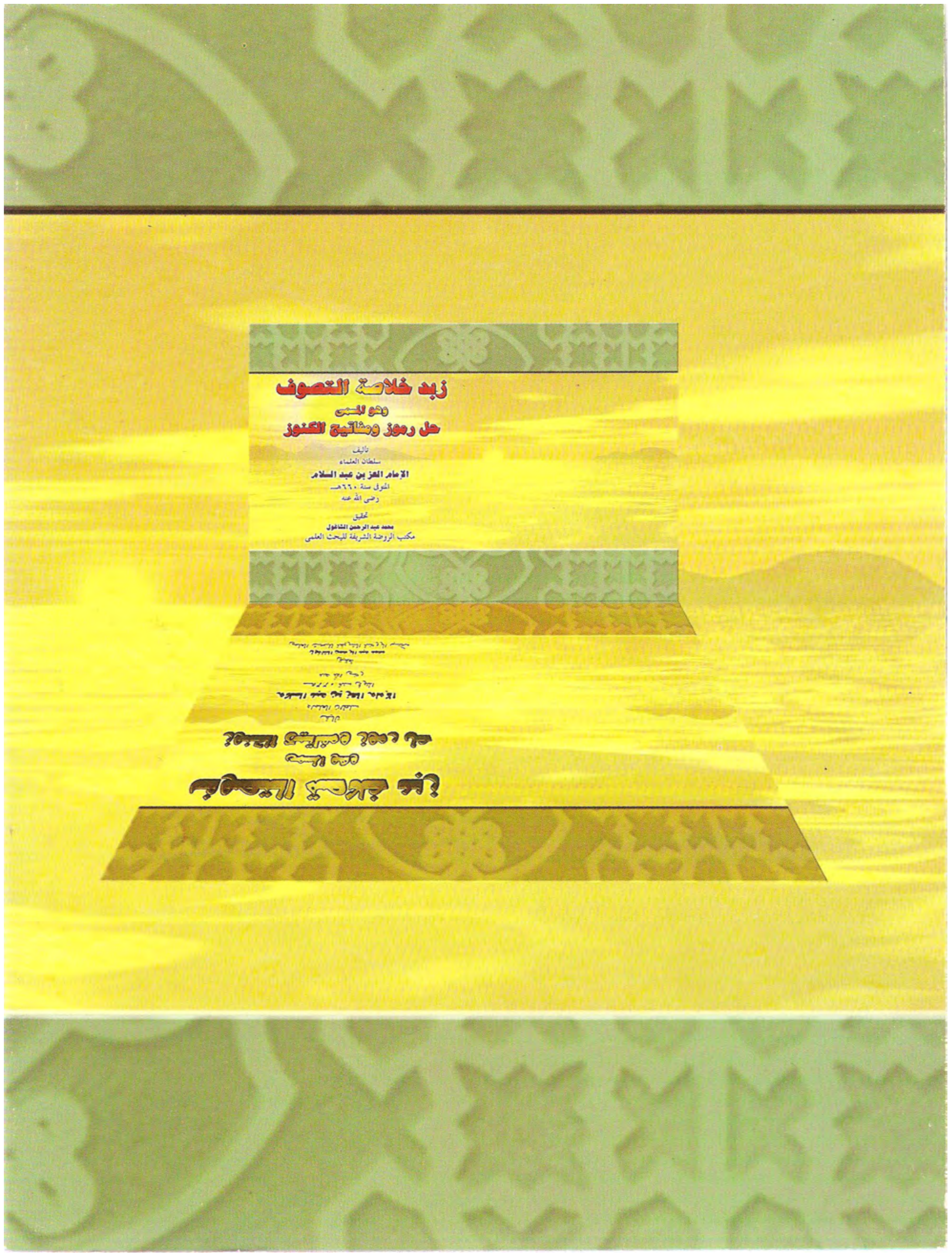
والمراجعة وتجهيزات الطباعة

(١) عطفة الجزار- أمام باب جامعة الأزهر الخلفى

خلف المسجد الأزهر الشريف

ت: ٥١٠٤٨٨١ - ٠١٠٤٩٥٢٢١٤

«فهرس الموضوعات»



زبد خلاصة التصوف
وهو المسمى
حل رموز ومفاتيح الكنوز
تأليف
سلطان العلماء
الإمام العز بن عبد السلام
المتوفى سنة ٦٦٠هـ
رضي الله عنه
تحقيق
محمد عبد الرحمن الشاغول
مكتب الروضة الشريفة للبحث العلمي